قام الطالب بتدارك الملاحظات
التي وردت عند المناقشة
د. محمد عبد الرحمن

د. حسين الجبوري

جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا
فرع الفقه والأصول

منع الموانع عن جمع الجوامع

في أصول الفقه

تأليف القاضي الإمام تاج الدين السبكي (٧٢٨ - ٧٧١هـ)

«تحقيق ودراسة»

٣٠١٠٢٠٠٠٠١٦٢٥

جامعة أم القرى
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

إعداد
سعيدة علي محمد الحميري

رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في أصول الفقه

باشراف فضيلة الأستاذ الدكتور

محمود عبد الرءوف علي

القسم الدراسي

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

٠٠٢٧٦ر

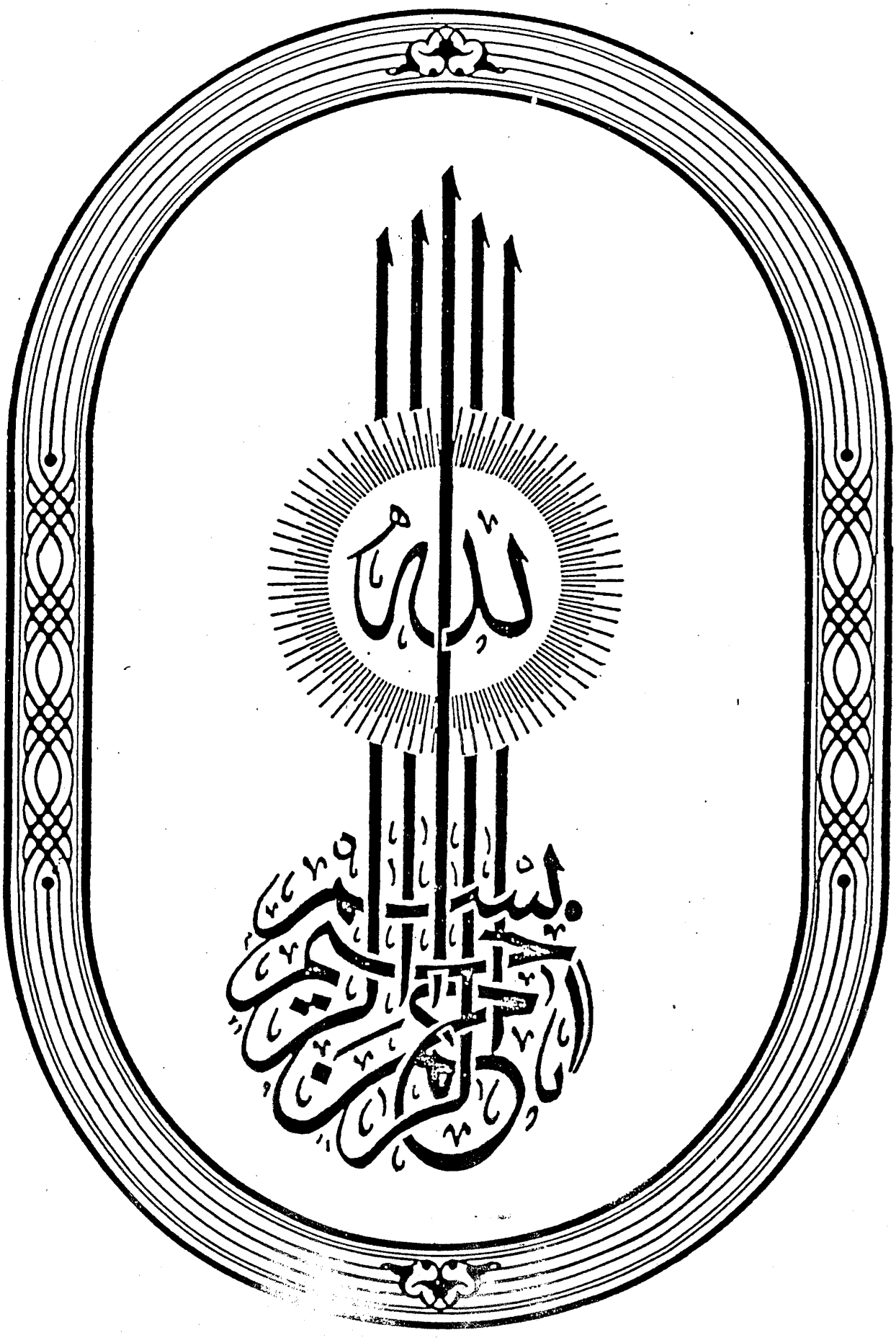
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــــر وتقـديـــر

أحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، واستعينك استعانة من لا حول ولا قوة له الا بك، وأشكرك الشكر الجزيل على ما أوليتنيه من نعمائك وآلائك، لا إله غيرك ولا رب سواك، أنت أهل الفضل والثنـــاء سبحانك لا نحصي ثناء عليك .

وبعـــــد . .

فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال : لا يشكـــــر الله من لا يشكر الناس" (١) .

و اعترافا بالفضل لأهله والفعل الحسن لذويه فإنه يسرني أن أتقدم بجزيل شكرى وخالص تقديرى إلى فضيلة شيخي الدكتور/محمود عبد الدائم على ، الذى كان لحسن إشرافه علي ودقة متابعته للموضوع أكبر الأثـــر في نفسي فقد أعطانى من وقته وتوجيهاته ما ذلل أمامى عقبات كثـــيرة فله منى خالص الشكر والثناء ومن الله تعالى المثوبة والجزاء .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أقدم شكرى أيضا لكل من أفادني من أساتذتي وزملائى بكتاب أو إرشاد ، أو أى نوع من المساعدة والنصح والتوجيه

كما أخص المسئولين فى جامعة أم القرى بكل تقدير وإكبار لقـــاء مايبدونه من حرص واهتمام فى نشر العلم والحدب على طلابه . .

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وجعل عملنا هذا خالصـــــا لوجهه الكريم ومن علينا بالتوفيق والسداد، إنه جواد كريم وهو حسبنـــا ونعم الوكيل .

---

(١) رواه أبو داوود ٢ / ٥٥٥

المقـــدمـــــة

الحمد لله العلي القدير العليم الخبير ، الذى أنزل على عبـده الكتاب ولم يجعل له عوجا "[1] وأشهد أن لا إله إلا الله الكبير المتعـــال ، ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الغفار ، وأشهد أن محمدا عبده ورسولـه البشير النذير خاتم النبيين وإمام المرسلين والقائل صلى الله عليه وسلـــم " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين "[2] .

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجـــد منك الجـد [3] .

" ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمـــة إنك أنت الوهـاب "[4] .

أمـــا بعـــد . .

فإن الاسلام هو دين الله الخالد الذى فيه الهدى والنـــور لمتاهـات البشرية الحائرة اليوم ، وهو الدين الحق الذى لا يقبل الله مـن الخـلق دينـا سواه : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فـي الآخرة من الخاسرين "[5] ، ولما كان دين الاسلام بهذه المثابة فـــان شرائعه العظيمة وأحكامه المتزنة قد جاءت من الشمول بحيث تنتظـم أمـور الحياة كافة فى المعاش والمعاد ، وفي العاجل والآجل ، فلا تخلو واقعـة من وقائع الحياة المتكاثرة عن حكم لله تعالى فيها عرفه من عرفه وجهله من

---

(١) سورة الكهف آية (١) .
(٢) رواه البخارى ١٩١/٢
(٣) رواه البخارى ١٠٣/٤
(٤) سورة آل عمران آية (٨) .
(٥) سورة آل عمران آية (٨٥) .

جهله وهذا أمر مقطوع به ،قال تعالى :" ما فرطنا فى الكتاب من شيء"(١) وقال تعالى :" تبيانا لكل شيء " (٢) .

وقال الشافعى رحمه الله : " وليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا وفى كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها" (٣) .

ولما كان علم أصول الفقه هو العلم المهيء لاستنباط الأحكام ، والركن الأساسي لبلوغ درجة الاجتهاد ، وتبيين الحلال من الحرام ، بما يمتاز به من تقعيد لقواعد الشرع وقضايا الألفاظ المتداولة ،من منطوق ومفهوم ،ومطلق ومقيد ،وعام وخاص ،ومجمل ومبين ،وحقيقة ومجاز ، وغير ذلك من مدلولات الكلام العربي الذى نزل به الوحي .

وكانت بحوثه إنما تنصب على الكتاب والسنة والاجماع والقياس وما يتعلق بها ويرجع إليها من المعاني والدلالات . كانت أهميته عظيمة ورتبته بين سائر العلوم متقدمة .

إذ أن بنيانه قد قام على النصوص السمعية والحقائق العقلية فارتفع بذلك مكانه وعز سلطانه .

ولذلك فإن مسائله المقررة وقواعده المحررة توخذ مسلمة عند كثير من الناظرين ،لاعتقادهم أن مسائل هذا الفن هى قواعد موسسة على الحق المبين والنهج القويم ، لكونها مربوطة بأدلة علمية من المنقول والمعقول ، وأشرف العلوم كما يذكر الإمام الغزالى رحمه الله :" مازدوج فيه العقل والسمع ،واصطحب فيها الرأى والشرع ،وعلم أصول الفقه من هذا القبيل فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ،فلا هو تصرف

---

(١) سورة الانعام آية (٣٨) .
(٢) سورة النحل آية (٨٩) .
(٣) الرسالة فقرة ٤٨ .

بمحض العقول، بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبنى على محـــض التقليد، الذى لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد" (١).

وقد برز فى هذا العلم المبارك علماء جهابذة ألفوا فيه فأبدعوا وشرحوا فأطابوا وأطنبوا ، واختصروا فأوجزوا وحرروا، على اختلاف طرائقهم ومذاهبهم فى ذلك، وكان من أفاضل هؤلاء العلماء الإمام تاج الديـــن السبكى رحمه الله ، فهو قعيد في هذا الفن ثقة ثبت راسخ القدم فيـه وقد ألف فيه مؤلفات بديعة فائقة ، وكان أجود مؤلفاته كتـــــاب " جمع الجوامع" فهو كتاب مختصر صغير الحجم بين كتب الأصول لكنه فريد فى بابه ، مشتمل على كثير من الدلائل مع التحقيق والتدقيق، والترتيب والتهذيب، ينخرط مع مختصر ابن الحاجب فى سلك واحد ، وإن كانـــت عبارته أوفى وأشرق، من عبارة ابن الحاجب .

وبالجملة فهو أحسن ماصنف فى هذا الفن وأجمعه وأنفعه ، مع سهولة فى العبارة وسبكها في قالب بديع، يدخل القلوب ويبهج النفوس، ويرمي المعنى من أمد بعيد .

ولقد ظل هذا الكتاب لفترة طويلة من الزمان تتلقفه فئام النـــاس بأعنة الإعجاب شرقا وغربا أمة بعد أمة وكان منذ صدوره بهذه المنزلـــة العظيمة لدى الخاصة والعامة ، فقد ذكر المصنف أنه دار على ألسنـــة الناس في زمانه وصار فى كل محفل كمضغة تلوكها الأشداق وتتردد تـــردد الأنفاس" (٢) .

وكتاب جليل القدر كهذا لا بد وأن تتناوشه سهام النقاد وتتفحصه

---

(١) انظر مقدمة المستصفى ١ / ٣ .
(٢) انظر قسم التحقيق ص ١٢

قرائح العلماء البزل ،وتتداعى عليه الدلاء من كل حدب، ثم تصطرع فيه أنظار الناس وتتمكن الحيرة من أفهامهم نحوه ، فيذهبون كل مذهب، فبعضهم يرى فيه إشكالات وعقدا تحتاج فى نظره إلى إيضاح وتحرير، وآخر يجد فيه زيادات على غيره، لا يستسيغ إثباتها فيه، بل هى عنده نوع من الحشو الذى لا يليق .

ومنهم من تصعب عليه عبارته ،وتدق على ذهنه ألفاظه، فلا يصل إليها فهمه ،ولا ينطلق بها لسانه ،لذلك كله فقد وردت عليه أسئلة شتى على مختلف نصوصه ومشكلاته، بعضها من أقران المؤلف، وبعضها من تلاميذه ، وبعضها من سائر علماء عصره ،فأجاب عن تلك الأسئلة جميعها وأماط اللثام عن مكنون عبارته وأوضحها للكافة أتم إيضاح ،بأسلوب رشيق وبيان بديع. ضمن كتابنا هذا ، وقصد بتلك الإجابات أن تكون كالشرح لمشكل الكتاب(١) فإن هذا المختصر لا يتأتى فهمه بسهولة لكل أحد ،ولا يلين لكل طالب ، بل لا يدريه ويدرك شأوه إلا أولو النظر من حذاق هذا الفن ووارديه(٢)

---

(١) انظر قسم التحقيق ص ٢٣٠ .

(٢) قال صاحب الآيات البينات ٣ / ١٢ فى معرض رده على الكورانى شارح جمع الجوامع: وهو من هو: قال : إنه تصدى لشرح هذا الكتاب وهو لم يعرف معانيه، ولم يدرك مراميه ، فكان كثيرا مايقع في الخطاء والزلل ،ومجافاة الصواب .
ثم ذكر أن من يتصدى لشرح «جمع الجوامع» ينبغى أن يكون كامل الأهلية فى الاطلاع والتدقيق، والتفحص لكافة كتب أهل الأصول، قديمها ومتأخرها ، لترتاض نفسه فى ذلك، ويقف على مقاصد هذا العلم.
ومن لم يكن كذلك فإنه يخطىء من حيث يريد الصواب، ويسىء من حيث يريد الإحسان . .

وهنا أقول : إن كتاب" جمع الجوامع " وإن كنت قد وصفته بما هو أهله فإنه كغيره من كتب البشر يؤخذ من قوله ويترك فليس هو مبرأ عن الخطأ، ولقد نفع الله الأمة بكتب طارت كل المطار ، وما فيها إلا ما وقع فيه عيب، وعرف منه غلط بغير شك ولا ريب. فلا يوجد كتاب في الدنيا سلم إلى مؤلفه فيه، ولم يتعقبه بالتتبع من يليه :

من ذا الذى ما ساء قط .. ومن له الحسنى فقط

والكامل الله في ذات وفي صفة .. والناقص الذات لم يكمل لمعمل

وقد وفر الله الكريم دواعي العلماء على الاشتغال بهذا الكتاب أيما شغل شرحا، ونظما، وحفظا ، فذكر له صاحب كشف الظنون (١) أكثر من عشرين شرحا، وعددا كبيرا من الحواشي والمنظومات .

وهكذا تداولت عليه قرائح العلماء، وتبارت في الانتساب إليه ، وما ذاك إلا لجلالته، وعظيم فائدته، وحسن نية مولفه رحمه الله .

وأما كتاب (منع الموانع) الذي هو موضع التحقيق فلا نطيل الحديث عنه هنا إذ سيأتي له فصل يخصه في محله من البحث.

وبالجملة فما قيل في أصله فهو مقول فيه بطريق اللزوم إذ هما من مشكاة واحدة، وإن كان لكل منهما صفته من حيث البسط والاختصار، فلكل مقام مقال .

---

(١) راجع كشف الظنون ١ / ٥٩٥ ومابعدها .

سبب اختيار الموضوع

إن تحقيق المخطوطات العلمية وخاصة النادرة منها يفيد المحقق فائدة علمية كبرى، ويكسبه دُربة وأناة في معالجة موضوعاتها وتحرير مشكلاتها، لأنه ملزم بالسير معها خطوة خطوة، في جميع أبواب الفن ومسائله التي تطرقها، فيطلع بذلك على قضاياه العلمية المنتشرة ضمن كتاب كامل، أو جزء كبير منه، وهذا بخلاف الموضوعات الجزئية التي تنحصر في قضايا معينة لا تعدوها.

ولما كنت في مرحلة الماجستير قد أخذت أحد هذه الموضوعات الجزئيه في علم الأصول، فإنني في هذه المرحلة قررت أن ألج باب التحقيق ليتسنى لي الاطلاع على معظم أبواب هذا العلم، ولأعيش معه في قضاياه ومشكلاته الممتعة والمتعبة.

ولقد لفت نظري أثناء الدراسة والاطلاع مارأيته من إشادة العلماء بكتاب «جمع الجوامع» لابن السبكي واعتمادهم على مسائله المحررة في أكثر من كتاب، حتى إن الشيخ العطار رحمه الله يذكر أن كثيراً من علماء زمانه كانوا إذا وردت عليهم مسألة أصولية ليست في «جمع الجوامع» يقولون هذه مسألة لا أصل لها (١).

ولما علمت أن لهذا الكتاب المرموق شرحا لمؤلفه التاج السبكي يحل غوامضه ومشكلاته، ويفك عقده ومغلقاته - وإن لم يكن شرحا شاملا لجميع مسائله - يممت خاطري نحو هذا الشرح، وتوجهت بعناية للبحث عنه والاطلاع عليه، وما إن وجدت منه نسخة في مركز البحث العلمي إلا وبدأت في قرائتها حتى النهاية، وعندئذ تعاظمت في نظري قيمته العلمية،

---

(١) حاشية العطار ٢/٢٤٧.

خاصة وأنى وجدته على شكل أسئلة وأجوبة تستوعب مسائل الفن كلـــه ، وهذا نوع بديع من التآليف، لا نعهده فى كتب الأصول ،

لذلك كله وإسهاما منى فى إثراء المكتبة الأصولية بهذا السفـــر العظيم المبارك، فقد قررت من فورى أن يكون أطروحتى العلمية التى أنـــا معنى بها فى هذه المرحلة من الدراسة، غير أن الكتاب فى معظمه لـــم يرتب على ترتيب أصله «جمع الجوامع» وكان قد دار فى خَلَدى أن أقـــوم أنا بهذه المهمة، ثم رأيت من الأفضل عدم ذلك لأنني خشيت أن أعتـــدى على حق مؤلفه ، أو أخل بوضعه الأول فصرفت عني هذا الخاطر، وأبقيـت الكتاب على وضعه السابق كما ارتضاه مؤلفه، فإن متن الكتاب حكم علـــى المؤلف، وحكم على عصره، وبيئته، وهى اعتبارات تاريخية لها حرمتها .

وقد قيل" الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم "

ولكنى قد وضعت جدولا فى آخر الكتاب يرشد إلى ترتيب أسئلـة « منع الموانع » وأجوبتها على حسب تسلسل عبارة الكتاب الأصل ، ليسهل على قارئ «جمع الجوامع» الرجوع إلى شرح النص المراد عند احتياجه لذلك .

خطـــة البحـــث

هـذا وقد اقتضت طبيعـة البحث أن يكون فى قسمين، أحد همـــا للدراسة والثانى للتحقيق ، ثم جاء القسم الدراسى فى تمهيد وبابـــين وخاتمة .

ذكرنا فى التمهيد أثر البيئة فى الشخص، وجعلنا الباب الأول فى دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية فى عصر التـــاج السبكي وفى ضمنه ثلاثة فصول :

الفصـــل الأولـــ :

فى بيان الحالة السياسية السائدة فى ذلك العصر

وتحته ثمانية مباحث :

المبحث الاول : فى تكوين دولة المماليك التي عاش التاج فى عهدها

المبحث الثانى : فى قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد .

المبحث الثالث : فى الحديث عن موقعة عين جالوت

المبحث الرابع : فى إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة .

المبحث الخامس: فى التصارع على السلطة عند حكام المماليك

المبحث السادس: فى ذكر صور من هذا التصارع

المبحث السابع : فى تشوف الناس إلى مناصب الدولة والسعى فى طلابها

المبحث الثامن : فى موقف التاج السبكى من الأحداث السياسية فى عصره

الفصـــل الثانـــى :

فى بيان الحالة الاجتماعية والاقتصاديـــة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : فى طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكى

المبحث الثانى : فى البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر

المبحث الثالث : فى الناحية الاقتصادية ،

الفصـــل الثالـــث :

فى بيان الحالة العلمية والثقافية فى عصر التاج

وتحته ستة مباحث :

المبحث الأول : فى تصوير النشاط العلمى ومطارحة العلماء فى ذلـــك العصـــر .

المبحث الثانى : فى التدرج فى التعليم .

المبحث الثالث : فى ذكر أسباب ازدهار الحياة العلمية آنذاك .

المبحث الرابع : فى اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء .

المبحث الخامس : فى ظهور شخصية العلماء ودورهم فى جهاد التتار

المبحث السادس : فى الكلام على التقليد والتعصب المذهبى لدى طوائف الناس .

البـــاب الثانـــى

فى دراسة حياة التاج السبكى وكتابه، والمكانة العلمية التى وصل إليهـا

وتحته سبعة فصول :

الفصـــل الاولـــ :

فـــى حياتـــه العلميـــــــة

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : فى مولـــــده

المبحث الثانى : فى اسمه ونسبه

المبحث الثالث : فى نشأته وطلبه للعلم

المبحث الرابع : فى عقيدتـــــه

المبحث الخامس : فى شيوخـــــه

المبحث السادس : فى تلاميـــــذه

المبحث السابع : فى ثناء العلماء عليـــه

الفصـــل الثانـــــى :

في دراســـة الكتاب

وفي ضمنه خمسة مباحث:

المبحث الأول : مصطلحات المصنف في الكتاب

المبحث الثاني : مصادر الكتاب

المبحث الثالث : أهمية الكتاب

المبحث الرابع : ملاحظات حول الكتاب

المبحث الخامس : أسلوب المؤلف ومنهجه في الكتاب

الفصـــل الثالـــث :

في التعريف بكتبه الأصولية واعتداده بأرائه فيها

وتحته ثلاثه مباحث :

المبحث الأول : التعريف بكتبه الأصولية الأربعة

المبحث الثاني : اعتداده بآرائه فيها

المبحث الثالث : انصافه لخصومه ورجوعه إلى الحق في مواقفه

الفصـــل الرابـــــع :

في مكانته العلمية والمجالات التي برز فيها وفاق .

ويشتمل على تسعة مباحث :

المبحث الأول : ابن السبكي الأصولي

المبحث الثاني : ابن السبكي الفقيـــه

المبحث الثالث : ابن السبكي المجتهد

المبحث الرابع : ابن السبكي المحدث

المبحث الخامس : ابن السبكي المؤرخ

المبحث السادس : ابن السبكي النحوي

المبحث السابع : ابن السبكى الأديب

المبحث الثامن : ابن السبكى الشاعر

المبحث التاسع : ابن السبكى المصلح الاجتماعى

الفصل الخامس :

فى الأعمال العلمية والمناصب التى شغلها فى حياته

ويتضمن مبحثين .

المبحث الأول : فى الافتاء والتدريس

المبحث الثانى : فى توليه منصب القضاء والخطابة

الفصل السادس :

فى موقفه من خصومه

والكلام على عزله عن القضاء وسجنه

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : فى محنته الأولى

المبحث الثانى : فى محنته الثانية

المبحث الثالث : فى محنته الأخيرة

الفصل السابع :

فى ذكر مؤلفاته ووفاته

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : فى ذكر مؤلفاته وآثاره العلمية

المبحث الثانى : فى وفاته

الخاتمة

أما القسم الثانى فهو قسم التحقيق وسيأتى الكلام على منهجى فيه فى مقدمة التحقيق إن شاء الله تعالى . .

واستمد من الله التوفيق والإعانة فهو نعم المولى ونعم النصير . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

البـــاب الأُولـــ

فى دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية فى عصر التاج السبكى

وسيكون الحديث فيه ضمن ثلاثة فصول :

الأُولـــ فى بيـان الحالة السياسيـــة

الثانـــى فى بيـان الحالة الاجتماعية والاقتصادية

الثالـــث فى بيـان الحالة العلميـــة

وتحت كل من هذه الفصول عدة مباحـــث . .

الفصـــل الأُولـــ :

فى بيان الحالة السياسية السائدة فى ذلك العصر

وتحته ثمانية مباحث :

المبحث الأُول : فى تكوين دولة المماليك التي عاش التاج فى عهدها

المبحث الثانى : فى قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد .

المبحث الثالث : فى الحديث عن موقعة عين جالوت

المبحث الرابع : فى إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة .

المبحث الخامس: فى التصارع على السلطة عند حكام المماليك

المبحث السادس: فى ذكر صور من هذا التصارع

المبحث السابع : فى تشوف الناس إلى مناصب الدولة والسعى فى طلابها

المبحث الثامن : فى موقف التاج السبكى من الأُحداث السياسية فى عصره

تمهيـــد فى أثر البيئـــة

الانسان ابن عصره علما وفكرا وثقافة وأخلاقـا وتقاليـد ، فهـو يعيـش مشاكله وأحداثه ينفعل به ويتفاعل معه يأخذ منه ويعطيه يؤثر فيه ويتأثر بـه ، وخاصة أولئك الذين يتربعون على عرش الحياة الفكرية لهذا المجتمع أو ذاك .

وكما يقال: فإن الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، لذلك كان للبيئـة التي يعيش فيها الشخص أثر واضح على سلوكه ومجرياته ، وتختلف البيئات فى قوة التأثير ونوعيته حسب مدخلاتها ، فالذى يعيش فى بيئة بدائية جاهلـة يختلف عن غيره ، ممن يعيش فى بيئة مزدهرة عالمة ، والذى يعيش فى بيئة تكثـر فيها الفوضى ويعمها الاضطراب ، غير الذى يعيش فى بيئة هادئة منظمة ، كمـا أن البيئة التى يعتورها أكثر من مؤثر واحد تختلف عن البيئة التى هى أقل من ذلك ، وكلما كانت المؤثرات أكثر وأوفر كان الاختلاف فى تأثير البيئات أعمق وأوسع .

ولما كانت أهمية البيئة بهذه الصورة كان لابد لدراسة جوانـب شخصية (ما) من التعرف على بيئتها والمؤثرات التى تسودها حتى يتسنى للباحث الحكم عليها بصورة دقيقة وعبارة لائقة .

ولدى النظر فى حياة التاج السبكى رحمه الله نجد أنه عاش خـلال القرن الثامن أى بين سنة (٧٢٨ - ٧٧١هـ) في دولة المماليك من الأتراك ، والعصر المملوكي فى جملته له أهمية ومكانة في الحياة الاسلامية بشكل عام لذلك سوف نبدأ الكلام فيه من بداية تكوينه عام ٦٤٨هـ بصورة موجزة على النحـو التالـي :

المبحـــث الأول

في بداية تكوين دولة المماليك التي عاش التاج في عهدها

ولد التاج السبكي رحمه الله في قرية سبك من أعمال المنوفيه بمصر سنة ٧٢٨هـ وفي هذه السنة مات شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله الذى كان له دوي جلل في الحياة العلمية والسياسية في العصر المملوكي بشكل عام، بما كان يتبناه رحمه الله من مواقف عظيمة وأعمال جليلة أثرت كثيرا في الحياة السياسية وقومت اعوجاج كثير من الولاة والحكام، وسلكت بهم الجادة في أوقات كثيرة من ذلك العصر.

وكان العصر المملوكي قد بزغ نجمه واستهل صارخا على إثر انقضاء دولة الأيوبيين عام ٦٤٨هـ على يد المعز ابن أيبك التركماني، الذى قضى على آخر حكام الدولة الأيوبية في عهده، السلطان توران شاه، وكان هذا السلطان قد ولي الحكم بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب[1] أواخر عام ٦٤٧هـ

---

(١) توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله بالمنصورة من ديار مصر، وهو يجاهد الفرنج ناصر للدين سنة ٦٤٧ قال ابن كثير ١٣/١٦٨ : « فأخفت جاريته عصمة الدين (أم خليل) المدعوة « شجرة الدر » موته وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه ، وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء وأعلمت أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه المعظم « توران شاه » وهو بحصن كيف، من أطراف البلاد فلما قدم إليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسرهم وقتل منهم مايقرب من المائة ألف والحمد لله، ولكنه كان شديدا على المماليك بعض الشيء مما جعلهم ينحرفون عنه، فتمالاء عليه كبراؤهم بقيادة شجرة الدر المذكورة والمعز ابن أيبك فقتلوه وبعده انقض ملك بني أيوب الذى استمر ٨٣ ثلاثة وثمانين عاما وسارت الدولة إلى الأتراك .

٦٤٧ هـ فقتله المعز المذكور بعد شهرين من ولايته وتسنم زمام الحكم بعد أن تزوج بالجارية شجرة الدر (أم خليل) وكانت هذه قد مهدت له الطريق للوصول إلى الحكم وتآمرت معه على قتل السلطان توران شاه [1] ، ولكنه أراد أن يتزوج عليها بأخرى فقتلته فورا ثم آل أمرها بعده إلى القتل والهوان ، وبعده أقام الأمراء بقيادة رئسهم سيف الدين قطز ولده (عليا) ملكا على البلاد سنة ٦٥٥هـ ولقبوه بالملك المنصور رغم صغر سنه واستمر سلطانا على مصر إلى أن خلعه قطز عام ٦٥٨هـ واستولى على عرش السلطنة وتم له الأمر بالاجماع ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز .

وعلى يد هذا السلطان تأسست دوله المماليك فى مصر ثم تمكنت واستقرت على يد خلفه الظاهر بيبرس الذى أعاد الخلافة العباسية إلى مصر بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد فى حملتهم المعروفة كما سنفصله فى المبحث الآتى . .

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن الجارية شجرة الدر هى التى وليت الحكم فى مصر عقب قتل السلطان توران شاه لمدة ثلاثة أشهر وضرب اسمها على السكة وخطب لها على المنابر ، وقد أنكر علماء مصر توليها الحكم كما أنكر ذلك الخليفة العباسى فى بغداد أشد إنكار عندئذ خلعت نفسها وعهدت بالسلطة إلى المعز ابن أيبك وتزوجته فتم له بذلك الوصول إلى الحكم ، وبذلك يمكن اعتبارها قنطرة وصل المماليك إلى الحكم عن طريقها وهى حد فاصل بين عهدين : انظر المقريزى ٣/ ٣٣٤ ، بدائع الزهور ١/ ٢٨٧ ، البدية والنهاية ١٣/ ١٦٩ .

المبحث الثاني

قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد

هذه الكارثه التى حلت بعاصمة الخلافة بغداد، والطامة التى محقت الاسلام وأهله فى تلك الديار، يصورها لنا الجلال السيوطى رحمه الله فيقول: "إن حديثها يأكل كل حديث وخبرها يطوى كل الأخبار وتاريخها ينسى كل التواريخ، وإنها لنازلة تصغر عندها كل نازلة، فهى من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى، فلو قال قائل إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن مايشبهها ولا مايقاربها"(١).

ثم أخذ يسرد قصتها وملابساتها وماكان من أمرها فقال: دخلت سنة ٦٥٥هـ والتتار جائلون فى البلاد وشرهم يتزايد ونارهم تستعر، والخليفةوالناس فى غفلة عما يراد بهم، والوزير ابن العلقمى الخبيث الرافضى حريص على إزالة الدولةالعباسية ونقلها إلى العلوية والرسل في السر بينه وبين التتار تترى، والخليفة المستعصم تائه فى لذاته لا يطلع على الأمور ولا غرض له فى المصلحة، وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند، فلما استخلف المستعصم كان خليا من الرأى والتدبير، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند وأن مصانعة التتار وإكرامهم يحصل بهالمقصود ففعل ذلك.

ثم إن الوزير كاتب التتار وأطمعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك وتأهبوا لقصد بغداد (٢).

وفى سنة ٦٥٦هـ قدم هولاكو بجيوشه الجرارة إلى بغداد وكانوا نحو مائتى ألف مقاتل، قال ابن كثير: " فأحاطوا ببغداد من ناحيتها

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ص ٤٦٥.

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٦.

الغربية والشرقية ، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم ، قد صرفوا عن قطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد . "(١) وهؤلاء التتار(٢) ما كان يقف في طريقهم شيء فما أن التقوا بعسكر الخليفة، حتى هزم العسكر، ودخلوا بغداد يوم عاشوراء ، قال السيوطي : فأشار الوزير لعنه الله على المستعصم بمصالحتهم وقال له : سأخرج إليهم أنا في تقرير الصلح ، فخرج وتوثق لنفسه منهم (٣) .

ثم ورد إلى الخليفة وقال : إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة ولا يريد منك إلا الطاعة وينصرف عنك بجيوشه، والرأي أن يجيب مولانا، و يخرج إليه لتقع المصالحة ، فوافق على ذلك(٤) ثم ذهب الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا مع الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة، والفقهاء، والأمراء، والأعيان، ورؤوس الدولة ، فلما اقتربوا من منزل هولاكو حجبوا عن الخليفة ، إلا سبعة عشر رجلا خلص بهم الخليفة وأنزل الباقون عن مراكبهم فنهبت وقتلوا عن آخرهم .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٠١ ، الطبقات ٨ / ٢٦١ ومابعدها .

(٢) قال السيوطي عن ديانتهم إنهم قوم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئا ويأكلون جميع الدواب حتى بني آدم ، ولا يعرفون نكاحا بل المرأة منهم يأتيها غير واحد ، انظر كلامه في حسن المحاضرة ٢ / ٥٢ ، ٢ / ٢٠٠ ، تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧ .

(٣) قال التاج "وكان هذا الوزير شيعيا رافضيا في قلبه غل على الاسلام وأهله تحيل في مكاتبة التتار وتهوين أمر العراق عليهم وتحريضهم على أخذها ، ووصل من تحيله في المكاتبة إليهم أنه حلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك دواء صار المكتوب فيه كل حرف كالحفرة في الرأس، ثم تركه عنده حتى طلع شعره، وأرسله إليهم، وكان مماكتبه على رأسه إذا قراتم الكتاب فأقطعوه، فوصل إليهم فحلقوا رأسه وقرؤا ماكتبه ثم قطعوا رأس الرسول" - انظر الطبقات ٨ / ٢٦٣ .

(٤) راجع ابن كثير ١٣ / ٢٠٢ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٦٧ ومابعدها ، حسن المحاضرة ٢ / ٢٠٠ .

ثم مد الجسر، وبذل السيف في بغداد، واستمر القتال فيها نحو أربعين يوما ، فبلغ عدد القتلى حوالى مليوني نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة .

قال السيوطى : وقتل الخليفة رفسا، وما أظنه دفن ، وقتل كافة من كان معه من أولاده وأعمامه وكانت بلية لم يصب الاسلام بمثلها ، فانظر إلى هول هذه الكارثة المدمرة، التى أهلكت الحرث والنسل، وكادت أن تأتى على الاسلام جملة، لولا لطف الله بهذه الامة ، وصدق الله العظيم " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " (١) .

وزير في دولة الاسلام يدعي الاسلام ويخون الأمة فيصانع الكافرين ويفعل العظائم ، هكذا تفعل بالاسلام النحل الضالة والفرق الرافضة على طول تاريخه ، ورحم الله ابن القيم حيث يصور لنا كيدهم على الاسلام ومعالأتهم لأعدائه، وتحزبهم ضد المسلمين في كل زمان ومكان ، فيقول" . . فإنه قط ما قام عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الاسلام، وكم جروا على الاسلام وأهله من بلية وهل عاثت سيوف المشركين عباد الأصنام من عسكر هولاكو وذويه من التتار إلا من تحت رؤوسهم، وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم ، وعبادهم، وخليفتهم إلا بسببهم ومن جرائهم ، فمظاهرتهم للمشركين والنصارى معروفة عند الخاصة والعامة، وآثارهم من الدين معلومة" (٢) .

هذا هو دينهم على مر التاريخ، فهل من عبرة وعظة ؟" وإنما يتذكر أولو الألباب" (٣) .

---

(١) الاية (٤٦) من سورة الأنفال .

(٢) انظر مدارج السالكين ١/٧٢ .

(٣) الرعد آية (١٩) .

المبحث الثالث

الحديث عن وقعة عين جالوت

تقدم أنه فى سنة ٦٥٥هـ قتل السلطان المعز ابن أيبك التركمانى سلطان مصر، على يد زوجته شجرة الدر، وبعض الأمراء، ثم سلطنوا بعده ولده (عليا) ولقبوه بالملك المنصور . وكان يومئذ صغيراً، وفى سنة ٦٥٦هـ حدثت كارثة التتار ببغداد، والتى على إثرها سقطت الخلافة العباسية هناك وقتل الخليفة وسائر حاشيته، وعاث هولاكو وجنوده فى الأرض الفساد، فسفك الدماء لمآت الآلاف من الناس، وأتلف الكتب الكثيرة التى كانت تملأ مكتبات بغداد، وأحدث فى البلاد خرابا ماحقا، ثم زحف على الشام واستولى عليها وفعل أفاعيله فيها ثم أخذ يهدد مصر وطارت أنباؤه إلى مسامع الأمراء هناك فجمع نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز أعيان البلاد، من القضاة والعلماء واستشارهم فى الاقتراض من التجار، وأخذ أموال من الشعب ليستعين بها على جهاد التتار .

فكان الاعتماد على قول الشيخ ابن عبد السلام، فأفتاهم بأنه لا يجوز ذلك إلا بعد أن يؤخذ كل ماعند الامراء من الذهب والأموال والآلات النفيسة ، ويفرق فى الجيش فإذا لم يكف ذلك، جاز أخذ الأموال من سائر الناس بقدر الحاجة عندئذ (١) .

ثم نوقش فى هذا الاجتماع خلع الملك المنصور وكان يومئذ صبيا صغيرا لا يعرف تدبير المملكة ولا يصلح للسلطة فى وقته ذاك ، لأنه لا يستطيع إدارة الحكم فى هذه الظروف الحرجة، التى تتطلب حاكما قويا محنكا فوقع الاتفاق

---

(١) راجع طبقات الشافعية ٨/٢١٥، البداية والنهاية ١٣/١٩٠ ، النجوم الزاهرة ٧/٧٢، السلوك ١/٤٣٣ .

على تولية الأمير سيف الدين قطز سلطانا على البلاد فبايعوه [1] ، وكان ذلك في ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ ولما تولى الحكم لقب بالملك المظفر قطز وأخذ يعد العدة لحرب التتار وسار بجيشه إلى عين جالوت وكانت جيوش التتار قد وصلت هناك فالتقى الجمعان وحمى الوطيس، وقاتل التتار ببسالة وبلاء فانتصر عليهم نصرا موزرا، وقتل قائدهم" كتبغا" وكسر جيشهم العرمرم الذى قيل عنه يومئذ إنه لا يغلب ، فانهزموا شر هزيمة وأوسعهم المسلمون قتلا وأسراً حتى فر الباقون وولوا الأدبار، لا يلوون على شيء، وكان أمر الله مفعولا ، وكان ذلك في رمضان سنة ٦٥٨هـ وتبع قائد الجيش الأمير الظاهر بيبرس فلول التتار المنهزمة حتى أجلاهم عن الشام ، وبعد انقضاء المعركة وتمام النصر للمسلمين قفل الجيش الإسلامي عائدا إلى مصر وفي أثناء الطريق جرى بين الملك المظفر قطز ونائبه الأمير الظاهر بيبرس بعض الخلاف ، أوغر صدر كل منهما على الآخر [2] .

لكن الظاهر بيبرس خشي على نفسه من السلطان و خاف إن هو رجع إلى القاهرة بعد هذا الانتصار العظيم والتفاف الناس حول السلطان أن يقضى

---

(١) قال ابن كثير" وكان ذلك من رحمة الله بالمسلمين فإن الله جعل على يده كسر التتار" البداية والنهاية ١٣ / ١٨٩ .

(٢) قيل إن سبب الجفا بينهما هو أن الظاهر بيبرس بعد انتهاء المعركة ساق وراء التتار إلى بلاد حلب، وطردهم عن البلاد، ووعده السلطان قطز بحلب، ثم رجع عن وعده ، فتأثر بيبرس من ذلك، وكان ذلك مبدأ الوحشة بينهما .
قال السيوطى :" وكان المظفر قطز عزم على التوجه إلى حلب لينظف البلاد من آثار التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له فصرف وجهه عن ذلك ، ورجع إلى مصر وقد أضمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلى بعض خواصه ، فأطلع على ذلك بيبرس فساروا إلى مصر وكل منهما محترس من صاحبه فاتفق بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل قطز فقتلوه في الطريق" ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧٦ .

عليه بكل سهولة،فقرر التخلص منه ، وخاتله حتى تمكن منه ، فوثب عليه وقتله، في أثناء الطريق قبل وصوله إلى مصر،وعاد بالجيش إلى القاهرة فأعلن استيلاءه على الملك وبايعه الناس ولقب بالملك الظاهر بيبرس ، وكان بيبرس قائدا حربيا هجوما محنكا لا يقدر عليه ، قال ابن كثير:" كان الملك الظاهر بيبرس شهما شجاعا عالى الهمة بعيد الغور مقداما جسورا يشفق على الاسلام وأهله ، أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه في هذا الوقت الشديد" (١) .

ونقل السيوطي عن الذهبي في ترجمته للظاهر قوله :" كان الظاهر خليقا بالملك لولا ماكان فيه من الظلم قال :، والله يرحمه ويغفر له فإن له أياما بيضاء في الاسلام ومواقف مشهودة معدودة" .

قال السيوطي :"وكان منقمعا تحتكلمة الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره ، حتى قال لما مات الشيخ " ما استقر ملكي إلا الآن " (٢)

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٥ ، ١٣/ ٢١٩ .

(٢) راجع حسن المحاضرة ٢/ ١٠٥ .

المبحث الرابع

إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة

بعد اجتياح التتار لعاصمة الخلافة بغداد واستئصالهم بيت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ بقيت الدنيا بدون خليفة لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر[١] ، وفى شهر رجب من عام ٦٥٩ علم السلطان الظاهر بيبرس ، أن بالعراق رجلا من بقايا البيت العباسى أخطأته مذبحة المغول، فجد فى استحضاره واستقدمه فورا إلى القاهرة، فلما وفد عليه ومعه بعض أصحابه ركب السلطان للقائه ومعه القضاة والدولة فشق القاهرة ثم أثبت نسبه إلى بنى العباس بحضور جمع من القضاة والأعيان وكبار رجالات الدولة ثم بايعوا له بالخلافة، وكان أول المبايعين الشيخ عز الدين ابن عبد السلام، ثم تبعه السلطان بيبرس، ثم بقية العلماء والأمراء والأعيان، ثم كافة الخلق، وكان يوما مشهودا وضرب اسمه على السكة وخطب له على المنابر وفرح الناس بذلك جدا، ولقب بالمستنصر بالله أحمد ، ثم قلد الخليفة السلطنة للظاهر بيبرس وخلع ذلك عليه فى شهر شعبان من هذه السنة، وعهد إليه بتصريف أمور البلاد الحاضرة وما سيفتح منها فاستوثق الظاهر بيبرس لملكه[٢] وكسب الشرعية اللازمة لتثبيته سلطانا على البلاد، فتمكن بذلك واستقام له الأمر، ثم عزم الخليفة على التوجه إلى العراق فخرج معه السلطان يشيعه إلى دمشق، ثم جهزه بعد ذلك بما يحتاجه من المال والعتاد، وفى أثناء الطريق تلقاه جماعة ، من عسكر التتار فقتلوه ومن معه فى المحرم من سنة ٦٦٠هـ فكانت خلافته دون ستة أشهر ،

---

(١) انظر حسن المحاضرة ٢/ ٥٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤٧٧ ، البداية والنهاية ١٣/ ٢١٩ .

(٢) إذ كان الناس يعتبرون المماليك غاصبين للسلطة من بنى أيوب الذين يستمدون سلطتهم من الخليفة العباسى ببغداد .

جامعة أم القرى
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

وفى سنة ٦٦١هـ قدم إلى السلطان رجل ادعى أنه من بنى العباس وأثبت نسبه للبيت العباسى أمام ملاء من الناس، ورجال الدولة، والعلماء فبايعوه بالخلافة على نمط الطريقة المتقدمة فى مبايعة الخليفة المستنصر، ولقب بالحاكم بأمر الله العباسى، ثم قرر السلطان خوفا عليه بقاءه فى القاهرة هذه المرة، واستمر خليفة إلى أن مات سنة ٧٠١هـ ثم توالت ذريته من بعده على الخلافة واحدا إثر واحد .. إلى ماشاء الله ..

لكن هذه الخلافة الهشة لم تكن ذات معنى فى الواقع إذ كان الحاكم الفعلى فى حقيقة الأمر هو السلطان، والخليفة لا يعدو أن يكون مظهرا من مظاهر شرعيته فقط .

لذلك كان باستطاعة السلطان أن يخلع الخليفة متى شاء ويبايع غيره وبإمكانه أن يحبسه أو ينفيه إلى أقاصى البلاد كما يحلو له الأمر دون اعتراض من أحد .

قال ابن كثير فى حوادث سنة ٧٣٧هـ: " استهلت يوم الجمعة والخليفة المستكفى بالله قد اعتقله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومنعه من الاجتماع بالناس ثم نفاه آخر الأمر إلى بلاد قوص ومعه أهله وذووه ومن يلوذ به وكانوا قريبا من مائة نفس، وبقى منفيا هناك إلى أن مات " (١) .

سنة ٧٤١هـ: لذلك كان الخلفاء طوال عهد المماليك شكلا بلا حقيقة إذ ليس لهم من الخلافة إلا اسمها (٢) ، وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس متربعا

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١٥٣، وانظر ايضا الدرر الكامنة ٢/ ١٤١ .

(٢) قال ابن القيم فى مدارج السالكين ١/ ٢٤٩ عند كلامه على أهل التقليد المتعصبين للمذاهب وكيف أن النصوص عندهم لا قيمة لها بجانب أقوال الأئمة : قال إنهم " .. أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان اسمه على السكة وفى الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع .. " .

على عرش مصر إلى أن مات سنة ٦٧٦هـ وجاء بعده السلطان قلاوون ولقب بالملك المنصور فتسلطن إلى أن مات سنة ٦٨٩ ثم ولي بعده ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل ومكث إلى أن قتل سنة ٦٩٣هـ .

ثم تسلطن بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو ابن تسع سنين ثم خلع، ثم أعيد ، ثم خلع ثانية، ثم تسلطن للمرة الثالثة وعمره أربع عشرة سنة واستمر بعد ذلك سلطانا بلا منازع إلى أن مات أواخر سنة ٧٤١ وهو أطول سلاطين المماليك مدة .

ثم تسلطن بعده من أولاده ثمانية على الولاء لم يكملوا نصف هذه المدة [١] ، وكان الملك الناصر هذا موصوفا بالظلم والجسارة و القسوة [٢] .

قال السيوطي :"لذلك انتقم الله منه في أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد في البلاد والقتل ."

فجميع من تولى الملك من ذريته إما أن يخلع عاجلا وإما أن يقتل .

---

(١) أولهم ابنه الملك المنصور الذى تسلطن بعده مباشرة عام ٧٤٢هـ ولكنه كان فاسد السيرة الشخصية فلم يمكث غير أشهر ثم خلع وقتل، وثانيهم الملك اسماعيل الذى ولى سنة ٧٥٢ واستمر إلى أن خلع سنة ٧٥٥هـ انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٥٠١ ، الدرر الكامنة ٤/ ١٤٤، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٤ .

(٢) قال ابن حجر في ترجمة هذا السلطان " إنه ولد وكفاه مقبوضتان ففتحتهما القابلة فسال منهما دم كثير، ثم صار يقبضهما فاذا فتحتهما سال منهما دم كثير، فأنذر ذلك بأنه يسفك على يديه دماء كثيرة فكان كذلك " .
انظر الدرر الكامنة ٤/ ١٤٤ ومابعدها .

قال ثم إن الله نزع الملك من ولد قلاوون وأعطاه بعض مماليكهم ولم يعد إليهم إلى وقتنا هذا ، وبعض ورثته أحياء إلى الآن فى أسوأ حال دينا ودنيا ، ومن تأمل بدائع صنع الله رأى العجب العجاب ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، "وإنما يتذكر أولو الالباب" هذا وقد كان صراع المماليك على السلطة وقتل بعضهم بعضا فى سبيل ذلك أمرا مألوفا لا يتحرجون منه كما سنراه فى المبحث التالى . .

المبحث الخامس

التصارع على السلطة عند حكام المماليك

هؤلاء المماليك أصلهم قوم أرقاء كان قد اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت٦٤٧هـ) ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستعملهم في خدمته وجيشه وتصريف أمور دولته ثم قفزوا إلى السلطة وتسنموها ماتربعا قهرا بعد أن قتلوا آخر ملوك بني أيوب وابن أستاذهم السلطان المعظم توران شاه أواخر عام ٦٤٧هـ وسلطنوا بعده أول مملوك منهم وهو المعز ابن أيبك التركماني الصالحي كما قدمناه في المبحث الأول . . ثم صارت الدولة لهم بعد ذلك واحدا إثر واحد ، وكانت حكومتهم في مجملها عبارة عن مجموعة من الأفراد يبطش بعضها ببعض وينقض بعضها على بعض طمعاً في الوصول إلى السلطة ولو بأي ثمن .

فحياتهم من هذه الناحية هي سلسلة متصلة من الفتن و الدسائس والكيد والغدر على نحو لا يمكن معه أن تستقر أمور أمة .

فكل أمير يتطلع إلى السلطة يرى من الضرورى للوصول إليها الاكثار من مماليكه ليتمكن بهم من الغلبة فإذا وصل فلا ضمان لبقائه سوى إخلاص عصابته وإعمال الحيلة في إرضاء سائر الأمراء الآخرين[1] ، لذلك فقد عانى الحكم

---

(١) ولا يكون ذلك إلا باقطاعاتهم الاقطاعات الضخمة من الأراضي الزراعية ومن ثم صار أغلب الأراضي اقطاعات للمماليك .
أضف إلى ذلك ماكان ينعم به على هؤلاء من المنح السخية والأموال الطائلة والملابس الفاخرة مما جعل الناس يتبرمون ولا يطيقون هذا الارهاق المالي الذى اقتضته حروب السلاطين والامراء فيما بينهم ، فوق ما اقتضته معيشتهم من بذخ وثراء ، وكل ذلك يستنفد ثروة البلاد وأقواتها فينعكس مردوده على الناس ويضر بهم إضرارا بالغا .

المملوكى من عدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات فى وظيفة السلطنة كثيراً وهـــذه الصفة لم تمنح أحدا من السلاطين فترة طويلة من الحكم إلا نادرا .

ومن النادر أن تجد منهم من مات ميتة طبيعية بسبب كثرة الانقلابـــات والفتن والقفز إلى السلطة بالقوة العسكرية ، ولقد صاحب هذا الاضطراب فـــى وظيفة السلطنة اضطراب شديد فى الوظائف الكبرى ، إذ ندر جدا أن يبقـــى إنسان فى وظيفته أكثر من ثلاث سنوات بل كثيرا ما كان النائب أو الأمـــير أو القاضى أو الوالي يعين ويعزل خلال حياته أكثر من مرة وفى كل مرة فى الغالب كانت تصادر ممتلكات الموظف المعزول وتفرض عليه الغرامات الباهظة .

وإليك صورا من هذه الوقائع لترى كيف كانت تسير الأمـــور؟ .

المبحث السادس

فى ذكر صور من هذا التصارع

قال ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٤هـ فى يوم عاشوراء " نهض جماعة من مماليك الملك الأشرف وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج عليه وجاءوا إلى سوق السلاح فأخذوا مافيه ثم أحيط بهم فمنهم من صلب ومنهم من شنق وقطعت أيدى آخرين منهم والسنتهم وجرت خبطة عظيمة جدا وكانوا قريبا من ثلاثمائة أو يزيدون " .

وذكر فى حوادث سنة ٧٤٨هـ " أن الأمير يلبغا الناصرى عزل عن نيابة الشام ثم طورد ، وقتل فى نفس السنة هو وكثيرمن أهله ، وعين بدله الأمير سيف الدين أرغون على نيابة الشام وفيها أيضا قتل سلطان البلاد الملك المظفر حاجى ، فقد وقع بينه وبين الأمراء أشياء فتحيزوا عنه فخرج عليهم فى طائفة قليلة فقتل فى الحال ثم قطع قطعا".

وفى سنة ٧٥٠هـ جاء الأمر بمسك الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة بدمشق وقتله فدخل عليه جماعة من الأمراء وهو مع جواريه نائم فخرج إليهم فقبضوا عليه وقيدوه وأصبح الناس وأكثرهم لا يشعر بشىء مما وقع فبات عزيزا وأصبح ذليلا وأمسى علينا نائب سلطنة فأصبح وقد أحاط به الفقر والمسكنة (١)، فسبحان من بيده الأمر يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

قال : وهذا كما قال تعالى :"أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون " (٢) .

---

(١) انظر البدايه والنهاية ١٤/ ١٩ ، ١٤/ ١٩٠ ، ١٤/ ٢٤٢ ، ١٤/ ٣٢٠ .

(٢) سورة الأعراف آية (٩٧) .

وذكر ابن حجر فى الدرر : فى ترجمة السلطان الناصر حسن : أنه أول ماولى السلطنة سنة ٧٤٨هـ بعد أخيه المظفر قبض على حاشية المظفر ثم أفرط فى مسك الامراء جدا واستبد بالأمر، ولكنه خلع سنة ٧٥٢هـ .. ثم أعيد سنة ٧٥٩هـ فاستبد بالمملكة وصفت له الدنيا، ولم يشاركه أحد فى التدبير ولم يكن فى زمانه من النواب من يقيم أكثر من سنة وكذلك الامراء ثم استمر على هذه الحال إلى أن خلع ثم قتل، على يد قائده يلبغا الناصرى سنة ٧٦٢هـ .

قال : وكان الأمير يلبغا أول من أمره الناصر حسن ثم كان على رأس من قام عليه .

وفى سلطنة الأشرف شعبان تناهت الرئاسة إلى هذا الأمير ولقب نظام الملك وصار صاحب الأمر والنهي، وهو السلطان فى الباطن، والأشرف بالاسم، وكان موكبه من أعظم المواكب وصار العدد الكبير ممن مماليكه نواب البلاد وكان يحمل إلى خزينته فى كل يوم مائتا ألف دينار، ثم كان أخر أمره أن قتله بعض مماليكه بإذن السلطان سنة ٧٦٨هـ" (١) .

هكذا كانت الحالة كما نرى كلها فوضى واضطراب لا يصفو لها مشرب ولا يضيء لها وجه ، ومما ساعد على بروز هذه الحالة النكدة ماكان يوجد بين الامراء من الحزبية والعصبية التى كانوا يؤلفونها حول أنفسهم فكل أمير له أتباعه و خاصته وله مماليكه وحاشيته ، وقد اكتوى الناس دائما بنيران هذه الفتن والمؤامرات ، وذاقوا بسببها الكثير من الويلات ، وأكثر ماوجد من ذلك فى الفترة التى عاشها التاج السبكي فى الشام أى مابين (٧٤١- ٧٧١هـ) .

وفى مقابل هذه الصورة المعتمة لسلاطين المماليك فقد كانت لهم فى

---

(١) راجع الدرر الكامنة ٤/ ٢٤٠ .

مجالات أُخرى صور مشرقة ناصعة حيث قاموا بحرب الصليبيين ودحرهم والانتصار عليهم فى معارك متتابعة .

يقول ابن كثير : "عندما نودى فى دمشق الغزاة فى سبيل الله إلى عكا . . خرجت العامة والمتطوعة يجرون على عجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويدارى، وخرجت العساكر بين يدى نائب الشام، وخرج هو فى آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر، وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصدا عكا، فتوافت الجيوش هناك وطلع المسلمون على الأسوار ونصبوا المناجق فولت الفرنج عند ذلك الأدبار وركبوا هاربين فى مراكب النجاة وقتل منهم عدد لا يعلمه إلا الله تعالى، وغنم المسلمون من الأمتعة والرقيق والبضائع الشىء الكثير وسلمت صور، وصيدا قيادتهما إلى الملك الأشرف فاستوثق الساحل للمسلمين ونظف من الكافرين" (١) .

وقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٢) .

وأيضا فقد قاموا بدحر جيوش التتار وصدهم، وقصم ظهورهم فى موقعة عين جالوت، التى دارت بين المسلمين والمغول سنة ٦٥٨هـ كما قد مر بك .

فإن الملك المظفر قطز لما بلغه ماكان من أمر التتار بديار الشام بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم فى عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه، فالتقى الجمعان على عين جالوت واقتتلوا قتالا عظيما، توج بنصر الله للاسلام وأهله وكان يوما مشهودا فى جبين التاريخ وصارت هذه الموقعة بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ الاسلام .

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٠ .

(٢) فقطع دابر القوم الذين ظلموا : الاية (٤٥) من سورة الانعام .

كما أن إعادة الخلافه العباسية إلى مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس، بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد، يعد معلما مضيئا فى تاريخ دولة المماليك لما كان لذلك من أثر كبير فى نفوس المسلمين لأن الخلافة كانت هى الرمز الوحيد لوحدة الأمة واجتماع كلمتهم .

ويمكن أن نستنتج مما تقدم أن دولة المماليك قد برزت كقوة جديدة أعادت للاسلام هيبته وبعثت الأمل فى نفوس المسلمين من جديد بعد ما أصابهم من الوهن والرعب الذى صاحب انتصارات التتار المتلاحقة عليهم واستيلائهم على بغداد والشام وكثير من بلاد الاسلام ، وصدق الله العظيم :" ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (١) .

---

(١) سورة آل عمران ، الاية (١٣٩) .

المبحث السابع

تشوف الناس إلى المناصب والسعي في طلابها

نظرا لما وجد في العصر المملوكي من التضارب على السلطة عند الحكام والأمراء كما قد عرفت فإن هذه الظاهرة لم تقتصر على الفئة الحاكمة وحدها بل انتشرت واستولت على مقاليد كثير من الخلق ، ووجد من سائر الناس من يبذل في سبيل الحصول على المنصب الغالي والرخيص فظهرت الرشوة واستشرت وعمت وتعامل بها كثير من أرباب الوظائف العالية، فأدى ذلك إلى فساد الذمم ووضع أشخاص لا كفاءة لهم في وظائف حساسة في الدولة وحرمان ذوي الكفاءة منها .

قال ابن كثير: " في حوادث سنة ٧١٢هـ قدم كتاب من السلطان إلى دمشق ألا يولى أحدٌ بمال ولا برشوة، فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية وإلى ولاية غير الأهل ، قال وكان سبب ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (١) .

فقد كان من له وظيفة مرموقة في الدولة ينظر إليه عامة الناس بعين الاجلال والإكبار، فإن فقدها سقط من أعينهم وتركوه ، ومما يصور لنا واقع حال الناس في ذلك العصر ما أورده ابن حجر عن القاضي بدر الدين بن عبد الله الحنبلي (ت٧٤٩هـ) وقد أنشد لنفسه في واقعة وقعت له فقال :

تحالف الناس والزمان .. فحيث كان الزمان كانوا
عادا لي الدهر نصف يوم .. فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيها المعرضون عني .. عودوا فقد عاود الزمان

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤ / ٢٥٧ .

وذكر أن سببها أنه عزل فى كائنة اتفقت له فجاءه الخبر أول النهـــار وعنده جمع كثير فانفض ذلك الجمع فى الحال ، ثم جاءته الولاية آخر النهار قال : فكاد باب منزلي يتكسر من شدة الزحام[1] .

ولم يقتصر حب المناصب وطلب العلو فى الدنيا على العامة من الناس ، وسائر الموظفين فى الدولة بل تعدى ذلك إلى طبقة العلماء والفقهاء فوجد منهم من يقفو هذا المسلك ويمشى فى ركابه ، فيتردد إلى أبواب السلاطـــين والأمراء ، ويبذل الأموال رغبة فى الجاه والازدياد من متاع الحياة .

قال التاج رحمه الله :" ومن العلماء من يضيع كثيرا من وقته فى طلب القضاء وغيره من المناصب ، وكثير من القضاة لا يدخلون فى القضاء إلا بالسعـــى وربما بذلوا عليه الذهب . . "[2] .

وذكر ابن الوردى فى تاريخه فى حوادث سنة . ٧٤هـ أن برهان الدين الرسعنى بذل لنائب حلب مالا كثيراً حتى جعله قاضى قضاة الشافعية فيهـــا : قال :" ولم يصادف راحة فى ولايته "[3] .

---

(١) راجع الدرر الكامنه ٣ / ٣٣٠ .

(٢) معيد النعم ص ٦٧ ، قال التاج وإنى لأعجب أشد العجب من عالـــم يجعل علمه سبيلا إلى حطام الدنيا وهو يرى كثيرا من الجهال وصلوا من الدنيا إلى مالا ينتهى هو إليه فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهـــل فمابالنا نشتريها بأنفس الاشياء وهو العلم ، فينبغى أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقى إلى الملاء الأعلى" .

(٣) انظر ذلك ٢ / ٣٣٨ .

المبحث الثامن

فى موقف التاج السبكى من الأحداث السياسية فى عصره

لم يكن التاج السبكى رحمه الله سلبيا تجاه تلك الأحداث السياسية المضطربة فى عصره، بل كان إيجابيا متفاعلا معها متأثرا بها ومؤثرا فيها بشكل جلى ،

ومن تأثره بها أنها كشفت عن معدنه الأصيل وأبرزت معالم شخصيته الفذة، من التمسك بالعقيدة ونصرة الحق والشجاعة الأدبية النادرة والمخاطرة بالنفس في سبيل إعزاز الدين ، فقد أثر فى هذه الأحداث بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومقارعة الظلم و الظالمين وقام حيال ذلك كله بما لم يقم به غيره ، ويتجلى هذا الأمر فى مواقفه الشجاعة من الحكام والولاة والامراء والوزراء وغيرهم من ذوى النفوذ والسلطان فى عهده ، كقوله مثلا عند كلامه على السلاطين :" إن من وظائف السلطان الفكرة فى العلماء والفقراء وسائر المستحقين وتنزيلهم منازلهم ، وكفايتهم من بيت المال الذى هو فى يده أمانة عنده ليس هو فيه إلا كواحد منهم ولد لوه نسبة دلاء المسلمين ، فإن تركهم جياعا فى بيوتهم وأخذ يمن بعظيم ملكه وزينته ولباس حاشيته فذاك أحمق جهول ، وإن ضم إلى هذا أنه استكثر على الفقهاء ما بأيديهم وتعرض لأوقاف وقفها أهل الخير ممن تقدمه عليهم فهو بلاء على بلاء (١)، فإن ضم إلى ذلك أنه يبيعها ويضعها

---

(١) وقد كان الأمراء فى دولة المماليك يستكثرون أرزاق العلماء وإن قلت ، ويستقلون الأرزاق على أنفسهم وإن كثرت ، قال التاج :"وهذه الطائفة من الأمراء يخشى عليها مقت الله فإنها تتبختر فى أنعم الله مع الجهل والمعصية وتنقم على خاصة خلقه يسيرا مما هم فيه ، ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده "
انظر معيد النعم ص ٤٩ .

فى غير مستحقها فقد خرق حجاب الهيبة " (١)

وفى معرض كلامه على الولاة ذكر أن منهم من يتجاوز فى الضرب المقادير الشرعية ويتنوع فى إيصال الآلام لمن يعاقبه ، بمجرد التهمة والظن ، قال :" وهذا من أعظم الفجور أفما علم هذا الفاجر أن ضرب برىء أصعب عند الله من تخلية ذى جريمة " (٢)

وقال عن الوزير وهو الذى ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع إلى السلطان : إن من حقه بذل النصيحة للملك وكف أذاه عن أموال الرعية وتخفيف الوطأة عنهم ما أمكنه ، وقد علم أن المكوس حرام ، فإن ضم الوزير إلى أخذها الاحجاف فى ذلك وتشديد الأمر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراما إلى حرام ، فإذا جلس هذا الوزير يعاقب الرعايا ليستخرج منهم الخبائث التى لا يجوز له أخذها ودفعها إلى من يأخذها ظلما ويصرفها فيما لا يحل فكيف يكون وجهه عند الله تعالى ؟ ، قال : ولذلك نرى عواقب الوزراء شر العواقب فى الدنيا والآخرة (٣) ، إلى غير ذلك مما ورد فى كتابه القيم " معيد النعم" ومن تصفحه عرف أى لهجة كانت لهجة تاج الدين رحمه الله فى حملته على النظم القائمة فى وقته وهو من أكبر موظفى الدولة لكنها النفوس الكبيرة لا تبالى بالاخطار ، خاصة وقد كان من حكام زمانه من يبلغ الذروة فى القسوة والظلم والجبروت ، قال ابن كثير عن واحد من هؤلاء وهو السلطان الناصر حسن الذى تسلطن عام ٧٤٨هـ قال عنه :" إنه لما كثر طمعه وتزايد شرهه وساءت سيرته إلى رعيته واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، ومس الناس بسبب ذلك ضرر عظيم ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الانكار عليه ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين انتقم الله منه

---

(١) معيد النعم ص ١٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٧ ومابعدها .

فسلط عليه جنده حيث خلعه وقتله أحد خواصه سنة ٧٦٢هـ والحمد لله رب العالمين " . (١) .

هذه إضاءة بسيطة وصورة مختصرة عن الحياة السياسية فى عصر التاج السبكى رحمه الله ومنها ننتقل إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر لنرى كيف كانت قسماته وملامحه .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٧٨ .

الفصـــل الثانـــى :

فى بيان الحالة الاجتماعية والاقتصاديـــــة

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الاول : فى طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكى

المبحث الثانى : فى البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر

المبحث الثالث : فى الناحية الاقتصادية

المبحث الأول

في ذكر طبقات المجتمع في عصر التاج السبكي

عاش التاج السبكي رحمه الله في مصر والشام وقد مرت هذه البلاد بظروف اجتماعيه متشابهة ويمكن تصنيف حالة الناس فيها إلى طبقات . .

أولا : الطبقة الحاكمة :

وتتكون هذه الطبقة من السلاطين والأمراء والوزراء ، وتقوم بإدارة البلاد ورسم سياستها الخارجية والداخلية ، وبتنظيم الجيش وإقامة المنشآت العامة كالمساجد والمدارس وسائر المرافق ، والمحافظة على أمن البلاد وجباية الزكاة وفرض الضرائب وغيرها .

وتعيش في بحبوحة من النعيم والترف والبذخ قد يصل أحيانا إلى درجة الخيلاء[1] وتتمتع بالجاه الزائد والكلمة النافذة ، وتختلف مواقف هذه الطبقة من أمور الدين قربا وبعدا . . فمنهم من ينتهك حرماته و لا يقف عند أحكامه وحدوده [2] ، ومنهم من يحترم الدين وعلماءه ويقف عند أحكامه ويعمل بما أمر به من إبطال المنكرات ورفع المظالم عن الناس والعدل بينهم وتحكيم

---

(١) من ذلك ماذكره ابن كثير ١٤ / ١٣٦ من أن الملك الناصر محمد بن قلاوون زوج ابنه على بنت أحد الأمراء سنة ٧٣٢ وجهزها بألف ألف دينار وذبح في هذا العرس من الأغنام والخيل والبقر نحوا من عشرين ألفا وحملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار وكثر البذخ جدا ، وذكر التاج أن الأمراء في عهده كانوا يشترون الفرس بمائة ألف درهم والمملوك بخمسين ألفا ، وكان لديهم من الأطرزة والزراكش المحرمة والخيول المسومة مالا يحد ولا يحصى ، انظر معيد النعم ص ٤٩ .

(٢) قال السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٥٠١ عن أحد هؤلاء وهو السلطان الملك المنصور إنه خلع عام ٧٤٢هـ لرعونته وشربه الخمور وسيرته الفاسدة في الناس ثم نفي إلى بلاد قوص وقتل بها .

الشرع وعدم اللجوء إلى غيره فى جميع أموره [١] .

ثانيا : العلماء والفقهاء :

هذه الطبقة كان لها دور كبير وهام فى المجتمع المملوكى ، وهى حلقة الوصل بين الحكام والعامة ومحل ثقتهم واحترامهم ، فالحاكم يعتمد عليها فى كسب تأييد العامة له وفى إثارة حماسهم للجهاد ورغبتهم فى الانفاق فى سبيل الله .

والعامة تنقاد لهذه الطبقة وتستجيب لما تقوله ، و تعمل بما توجه إليه ، والحاكم يختار منهم القضاة والخطباء ورجال الحسبة ، وأحيانا الوزراء وهم متفاوتون فى العلم والتقوى والورع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمنهم من يرفض القضاء زهدا وورعا ، وخشية من عدم إقامة الحق فيه لفساد الزمان ، ومنهم من يقبله فيعدل بين الناس ، ويحكم بالحق ولو كان على السلطان ، ولا يخشى فى الله أحدا ، ومنهم من يجامل الحاكم ، ويجرى على رغبته وأهوائه فلا يأمره بمعروف ولا ينهاه عن منكر ، ومنهم من يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ولا يجامل فى ذلك أحدا كائنا من كان .

ومن هؤلاء الشيخ الامام تقى الدين السبكى رحمه الله فقد كان يقوم فى الحق ويفوه بين يدى الامراء بما لا يقوم به غيره فيذعنون لطاعته [٢] ذكر التاج فى الطبقات أنه قال مرة لبعض الأمراء وقد رأى عليه طرازا من ذهب على قباء من حرير : ياأمير أليس فى الثياب ماهو أحسن من هذا الحرير وأظرف من هذا الطراز؟ أى لذة لك فى لبس الحرير والذهب ، وعلى أى شيء يدخل المرء فى جهنم؟ وعذله فى ذلك حتى قال له ذلك الأمير اشهد علي أنى لا ألبس بعدها حريرا ولا طرازا ، وقد تركت ذلك لله على يدك . قال التاج : "فلما فارقه جاءه من أعرفه من الفقهاء ، وقال له : أما الطراز

---

(١) ومن هؤلاء على سبيل المثال الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ، بين سنة ٧١٢ - ٧٤٠ هـ قال عنه ابن حجر ، سار السيرة الحسنة العادلة ولم يكن أحد يتمكن من ظلم أحد فى ولايته ، ولو كان كافرا ، وكان مثابرا على عمل الحق ونصر الشرع ، ويعظم أهل العلم و يجلهم كثيرا ، وكذلك الأمير علاء الدين الماردينى قال ابن حجر فى ترجمته إنه كان منقادا إلى الشرع يحب العلماء ، ويقربهم مع الدين والفقه والمعرفة ، ولين الجانب وكان من حفظة القرآن : انظر الدرر الكامنة ٢٠/١ ، ٧٧/٢ ، النجوم الزهرة ١١٦/١١ البداية والنهاية ١٩٥/١٤

(٢) الطبقات ٢١٧/١٠ ، البداية والنهاية ١٨١/١٤ .

فقد جوزه أبو حنيفه مادون أربع أصابع وأما الحرير فقد أباحه فلان . . وأما . . وأما . . ورخص له فى ذلك (١) والأمير مسكين ليس له من العلم والعقل مايميز به . . " .

وقال أيضا إن الشيخ الامام حكم مرة فى واقعة جرت وصمم فيها وعانده أرغون الكاملى نائب الشام، وكاد الأمر يطلخم شاما ومصرا ، قال التاج: فكلمه القاضى صلاح الدين الصفدى فى ذلك وقال له يامولانا قد أعذرت ووفيت ما عليك وهولاء مايطيعون الحق، فلم تلقى بنفسك إلى التهلكه وتعاديهم ؟ قال فتأمل فيَّ مليا ثم قال : (فليت الذى بينى وبينك عامر . . وبينى وبين العالمين خراب) والله لا أرضى غير الله ولا أخشى فيه هولاء : قال فعلمت أنه لا يرجع بزخرف من القول " .

ومنهم أيضا شيخنا التاج السبكى رحمه الله فله فى باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح فساد الحكام والولاة وإلزامهم بتحكيم شرع الله باع طويل وأخباره فى هذا الباب عجيبة ، خاصة عندما كان هولاء الحكام يخرجون عن أحكام الشرع والدين، ويحكمون عقولهم فى أمور المسلمين ومصالحهم الخاصة والعامة .

---

(١) انظر رقة دين هذا الفقيه كيف لعب بعقل الأمير وأفتاه بالحرام ولم يرع حق الله فى ذلك .
قال التاج : " والفقهاء مابين صالح وطالح فالصالح غالبا لا يتردد إلى أبواب الملوك والطالح يترامى عليهم ثم لا يسعه إلا أن يجرى معهم على أهوائهم ويهون عليهم العظائم " ، طبقات ٢ / ٥٩ ولما كان العلماء هم القدوة فى الناس فإنه بصلاحهم يصلح الناس وبفسادهم يفسدون ، كما قال الشاعر :

هم هم خير من فيها إذا صلحوا . . وشر داء من الادواء اذا فسدوا
فمنهم كل معروف وصالحة . . ومنهم تفسد الأقطار والبلد
فما شقت أمة إلا بشقوتهم . . يوما ولا سعدت إلا إذا سعدوا

طبقات ٧ / ١١٧ .

وكمثال على ما نقول نورد إليك ما ذكره في المثال التاسع والعشرين من كتابه "معيد النعم" عند كلامه على الحاجب، وكان الحاجب يسمى يومئذ قائد الجيش.

قال :" ولم يكن في الزمان الماضي يحكم . . والآن اصطلحت الترك على أنه يفصل في القضايا .

فنقول : عليه رفع الأمور إلى الشرع وأن يعتقد أن السياسة لا تنفع شيئا بل تضرا لبلاد و الرعايا، وتوجب الهرج والمرج، ومصلحة الخلق فيما شرعه الخالق، الذي هو أعلم بمصالحهم و مفاسدهم ، وشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم متكفلة بجميع مصالح الخلق في معاشهم ومعادهم، و لا يأتي الفساد إلا من الخروج عنها، ومن لزمها صلحت أيامه واطمأنت .

ولم يقض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكمل الله لنا ديننا . .

ثم قال : وقد اعتبرت - ولا ينبئك مثل خبير - فلم أر ولم أجد من يظن أنه يصلح الدنيا بعقله ويدبر البلاد برأيه وسياسته، ويتعدى حدود الله وزواجره إلا و كانت عاقبته وخيمة وأيامه منغصة منكدة وتفتح عليه أبواب الشرور ويتسع الخرق على الراقع.

فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه فعرفه أنه جهول، باغ أحمق، حمار، دولته قريبة الزوال ومصيبته سريعة الوقوع، وهو شقي في الدنيا والآخرة وإذا أخذه الله لم يفلته . ." (١) ، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تنتقد عيوب الحكومة والأمة جميعا نقدا مرا لا ذعا فقد أبدى المؤلف رحمه الله في أثناء هذا الكتاب شدة قوية وشجاعة نادرة فيما يتصل برجال الدولة والحكومة فأظهر عيوبهم وكشف عن سوآتهم بأسلوب عجيب وجرأة غريبة .

ثالثا : العامة :

هذه الطبقة تتكون من خليط من الناس تختلف أجناسها وطبائعها

---

(١) انظر ص. ٤ وما بعدها من الكتاب المذكور.

وأعمالها، وهم تبع لمن ساد عليهم لا يفرقون بين الفاضل و المفضول، فالسلاطين يتصارعون على الحكم فيما بينهم، والعامة تشهد هذا الصراع ولا حول لهم ولا قوة ، ثم يخضعون للمنتصر فيدير أمور البلاد والعباد، دون أخذ رأيهم أو مشورتهم ولا يحركون ساكنا .

وعلى كاهل هذه الطبقة يقوم اقتصاد البلاد فتروج تجارتها ويزدهر عمرانها وتتقدم صناعتها ويكثر إنتاجها الزراعى والحيوانى وغير ذلك من موارد البلاد ، فمنهم التجار الذين يقومون بالبيع والشراء والتصدير والاستيراد وما إلى ذلك، فيصدرون ما تنتجه البلاد من المنتجوجات المتنوعة كالزيوت والصابون والورق وغيرها (١) ومنهم الصناع الذين يقومون بصناعة الألبسة والأوانى المستخدمة، والأسلحة المستعملة فى عدة الجهاد وغير ذلك .

ومنهم الزراع والفلاحون ورعاة المواشي وغيرهم من أرباب الحرف الذين

---

(١) كانت طبقة التجار مقربة أحيانا من السلاطين لأنهم كانوا يحسون بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسى الذى يمدهم بالمال فى ساعات الحرج والشدة ، وكان كثير منهم يتمتعون بثروات طائلة خاصة تجار الرقيق الذين كان لهم مكانة خاصة وحظوة زائدة عند الأمراء فكانوا يقومون بتوريد مايعجب السلاطين والأمراء ومايروقهم من الجوارى والغلمان ويغالون فى أثمانهم حتى يصل ثمن المملوك الواحد إلى خمسين أو مائة ألف درهم، وكانت تبرد لهم البرد فتساق لجلبهم الخيول وتزعج النفوس : قال التاج " وكانت أئمة العدل لا تبرد البرد إلا لمهم من مهمات الاسلام ، والآن أكثر ماتهلك خيول البريد وتساق للاغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجوارى والأمتعة الزائدة وإذا ركب الفقيه فرسا أنكروا عليه وقالوا إن البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوه من شراء مملوك مليح أو استدعاء مغن حسن الصوت أو خراب بيت شخص أنهى منه مالا صحة له . . إلى أمثال ذلك . . " .
صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٢ .

كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان (١) .

وكان هؤلاء على كثرتهم هم الطبقة المغلوب على أمرها فى ذلك العصر ، وكثيرا ماكانوا يجأرون من المغارم والمظالم التى كانت تحل بهم من الولاة والحكام آنذاك ، وما كانوا يلقونه من سلب ونهب من قطاع الطرق ، والسراق العابثين والمفسدين فى طول البلاد وعرضها فى أوقات كثيرة .

رابعا : أهل الذمة :

هذه الطبقة تتكون من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم فرق مختلفة وكانوا يؤدون الجزية مقابل ما تكفله لهم الدولة من الحماية والرعاية وفى بعض الأحيان كانوا يحاولون التنصل من أدائها بشتى السبل(٢) وكانت تقع

---

(١) وقد كان سلاطين المماليك يلزمون الفلاحين بفلاحة الأرض ويكرهونهم على ذلك ولا يرضون لفلاح أن يتحول عن مهنته خشية أن تبور الأراضى الزراعية فيؤثر ذلك على إيرادات الدولة منها ، وهذا نوع من التضييق على الناس لا يصح أن يكون ، لذلك ، قال التاج رحمه الله منكرا على هؤلاء : ومقررا حرية الفلاح فيما يختاره لنفسه" ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين فى الاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لأدمى عليه وهو أمير نفسه .
قال : وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهرا ، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال فى غير الشام أشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده" والبلاد تعمر بدون ذلك ، بل إنما تخرب بذلك لأنهم يضيقون على الناس فيضيق الله عليهم . ." - انظر معيد النعم ص ٣٤ .

(٢) قال ابن كثير : "فى سنة ٧٠٢ هـ عقد مجلس لليهود والزموا بأداء الجزية فاحضروا كتابا معهم يزعمون أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع الجزية عنهم ، فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه مكذوب مفتعل ، وقد حاققهم عليه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله وبين لهم أنه مزور مكذوب فأنابوا إلى أداء الجزية .
قال ابن كثير : وقد وقفت أنا على هذا الكتاب فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر وقد توفى سعد قبل ذلك بنحو سنتين . . " .
انظر البداية والنهاية ١٤ / ١٧ .

بينهم وبين المسلمين فتن ولكن سرعان ما تنتهى .

وهذه الطبقة تشارك المسلمين فى دفع عجلة الحياة. وتقدم البلاد فتشارك فى الزراعة والصناعة والحرف الأخرى وكان لها دورها فى التجارة، وقد كسبت منها أموالا طائلة وأثرت ثراء كبيرا (١) ، وكانت تشارك أحيانا فى أعمال الحكومة المالية وقد برزت كثيرا فى هذا الجانب ووجد منهم الكثير من الأدباء فى النحو واللغة العربية وغير ذلك . ، وقد احتفظوا بنظمهم الخاصة فيما بينهم ، وتمتعوا بعطف السلاطين فى كثير من الأوقات .

---

(١) ذكر ابن كثير أن فضل الله بن الخير الهمدانى كان أصله يهوديا عطارا فتقدم بالطب وشملته السعادة وعلت رتبته ومكانته وحصل له من الأموال والاملاك مالا يحد ولا يوصف . "
انظر البداية والنهاية ١٤/٢٠٢ .

المبحث الثاني

في البدع والخرافات السائدة في ذلك العصر

قد عرفت كيف كان البناء الاجتماعي والثقافي في العصر المملوكي متفاوت الطبقات غير أن طبقة العامة في ذلك العصر وهم جمهور الأمة من المسلمين، كانت معتقداتهم وعقولهم فريسة للتشويه والانحراف اللذين ضربا بساطة العقيدة الاسلامية في نفوس الناس ، وحل محلها كثير من الخرافات المتعلقة بتقديس أضرحة الأولياء والمزارات المختلفة ، وصاحب ذلك كثير من الممارسات والبدع السيئة، ومن ذلك ماذكره ابن كثير رحمه الله في تاريخه في حوادث سنة ٧٥١هـ حيث قال :" ومن العجائب والغرائب التي لم يتفق مثلها من نحو مائتي سنة وأكثر، أنه اتفق في هذه السنة إبطال الوقيد بجامع دمشق في ليلة النصف من شعبان، وفرح أهل العلم بذلك وأهل الديانة فرحا شديدا ، وشكروا الله تعالى على تبطيل هذه البدعة الشنعاء التي كان يتولد بسببها شرور كثيرة بالبلد قال : وكانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو سنة خمسين وأربعمائة، وكم سعى فيها من عالم وفقيه وعابد وزاهد وأمير ونائب سلطنة وغيرهم، ولم ييسر الله إبطالها إلا في عامنا هذا فله الحمد والمنة .

وكان قد استقر في أذهان الجهلة أنه إذا أبطل هذا الوقيد في عام ، يموت سلطان الوقت وكان هذا لا حقيقة له ، ولا دليل عليه إلا مجرد الوهم والخيال . .

وذكر أنه في سنة ٧٠٤هـ في رجب أمر الشيخ ابن تيمية رحمه الله أصحابه بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . ."(١)

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/ ٣٠، ١٤/ ٢٠٢.

ومن البدع القبيحه أيضا ما كان يجرى فى ذلك العصر من تقبيل الأرض بين أيدى الحكام والسلاطين أو الانحناء لهم بما يشبه السجود . . قال التاج : " ومن أقبح البدع المحرمة تقبيل الأرض بين أيدى الملوك فإنه من عظائم الذنوب ويخشى أن يكون كفرا . . " (١)

---

(١) راجع معيد النعم ص ٢٠

المبحث الثالث

فى الناحية الاقتصادية آنذاك

كانت الحالة الاقتصادية في البلاد فى هذا العصر تتراوح بين مد وجزر، رخاء وبؤسا، فأوقات تخصب البلاد، وتكثر الأمطار، فيزداد الانتاج وترخص الأسعار وتتنوع الخيرات ويعم الرخاء والطمأنينة والأمان والبركات فى كافة مرافق الحياة[1] ، وطورا تصاب الأمة بالجدب والقحط وقلة القطر، فتجف المياه وتشح الأرض وترتفع الأسعار وتحدث المجاعات الشديدة فى المجتمع فيموت من جرائها أقوام كثيرة ويهلك العزيد من الحرث والنسل، وأحيانا تجتاح البلاد كوارث مدمرة كأمراض الطواعين والزلازل، والجراد، ونحو ذلك .

قال ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٥هـ: " كان الغلاء والفناء بديار مصر شديدا جدا، والأقوات فى غاية القلة، والأسعار فى غاية الغلاء والموت عمال فى الناس على أشده، فكانوا يحفرون الحفيرة ويدفنون فيها الفئام من الناس، ووقع بالشام غلاً فاحش، حتى قيل إن الحمير والخيول والبغال والكلاب

---

(١) وقد كانت الموارد المالية فى ذلك العصر تنحصر فى الزراعة والتجارة والصناعة والضرائب التى تفرضها الدولة على الأثرياء من الناس، ثم الغنائم التى كانت تؤخذ فى ثنايا معارك الجهاد مع أعداء الاسلام من التتار والصليبيين والفرنج وسائر الكفرة المحاربين .
وقد كان لهذه الغنائم المتتابعة مردودات مالية ضخمة ولكنها لم تكن توزع على مستحقيها، بل كان يحتجرها سلاطين الدولة وأمراء المعارك من المماليك، ويعيشون بها حياة رغدة مليئة بالترف والبذخ وسائر متع الحياة ، قال التاج رحمه الله :"ومن قبائح أمراء الدولة أن الجندى يقاتل ويخاطر بنفسه فيقتل فى الحرب كافرا فلا يعطونه سلبه والنبى صلى الله عليه وسلم قد أعطاه إياه حيث قال : من قتل قتيلا فله سلبه" رواه البخارى ٣ / ٦٧ ، وهم يمنعونه منه فيفترون بذلك عزائم الجند ، فان الجندى إذا عرف أنه يخاطر بنفسه فلا ينصف فى عزيمته" انظر معيد النعم ص ٥٣ .

فنيت من أكل الناس لها ولم يبق شيء من هذه الحيوانات إلا أكلوه، وفي سنة ٧٠١هـ قدم الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار، وجرد الأشجار حتى صارت مثل العصى، ولم يعهد مثل هذا .

وفي سنة ٧٠٢هـ وقعت زلزلة عظيمة وكان معظمها في الديار المصرية ولم ير مثلها في هذه الأعصار، وفي سنة ٧٤٥ حدث غلاء فاحش وقلة للأمطار وجفاف للأنهار، حتى كان المسافر لا يحصل على مايشربه أو يسقي به فرسه إلا بكلفة شديدة .

وكانت أمراض الطواعين تفتك بالناس في أوقات كثيرة فيموت بسببها خلق كثير[1] وكان هذا المرض إذا دخل بيتا لا يكاد يخرج منه حتى يأتي على غالب أهله فإنا لله وإنا إليه راجعون" [1] .

هكذا كانت حالة البلاد والناس بشكل عام، تعتورها هذه الظروف المتقلبة رخاء وشقاء ، أما طبقة السلاطين والحكام فقد كانوا يعيشون في ترف وبذخ وأبهة زائدة رغم هذه الأحوال التعيسات، فلم يكن يلسعهم مثل هذا الضنك والقلة، بل هم لا يكادون يشعرون بشيء من ذلك، لما كانوا يحتجرونه من الأموال والاقطاعات وأثمان الأقوات من الذهب والفضة وغير ذلك .

قال التاج رحمه الله في حديثه عن هذه الطبقة وما كانوا عليه من الإسراف والخيلاء وتبذير الأموال في ضروب المعاصي والمحرمات، قال :" ومن قبائحهم مايذهبونه من الذهب في الأطرزة العريضة والمناطق وغيرها من أنواع الزراكش المحرمة، وزخرفة البيوت سقوفها وحيطانها بالذهب، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضيق سكة المسلمين . . وأنت إذا اعتبرت ما يذهب من الذهب في هذه الأغراض الفاسدة تجده قناطير مقنطرة لا يحصيها إلا الله تعالى ، ولو كان مضروبا سكة يتداولها المسلمون لانتفعوا به ورخصت

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١٧٠، ١٤/ ١٩٣

البضائع وكثرت الأموال ، ولكنهم احتجروه وفعلوا كل هذه القبائح . . ولو أنهم اتقوا الله حق تقاته ، ووضعوه في مواضعه لما بقي في البلد جائع ولا محتاج".(١)

هذا هو وجه الحياة في العصر المملوكي بشكل عام . . ورغم ما امتاز به هذا العصر من الازدهار العلمي والحرص على إقامة المساجد وبناء المدارس والخوانق والأربطة والاتصاف بكثير من مظاهر التقوى، إلا أن الأمراض الاجتماعية الفتاكة كانت تسري وتنتشر في كيان المجتمع وقت ذاك، حيث ظهر كثير من المنكرات واستشرى الفساد وعمت المعاصي وتعامل الناس بالرشوة وذاعت بينهم معتقدات باطلة توارثوها حتى غدت عندهم بمثابة السنن الثابتة (٢) .

وبعد فهذه أبعض ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر البيئة التي عاش فيها التاج السبكي رحمه الله . . نكتفي هنا بما أوردناه منها والله المستعان، ثم ننتقل بعده إلى بيان الحالة العلمية والثقافية في ذلك العصر ضمن الفصل التالي . . .

---

(١) انظر معيد النعم ص ٥٠

(٢) كإقامة الموالد للأولياء والصلحاء وغيرهم وكالسحر والتنجيم والكهانة وغير ذلك ، قال التاج في معيد النعم : " وقد كثر المنجمون والكهان والسحرة في زماننا هذا نعوذ بالله منهم" ثم أخذ يتكلم على هذه الفرق في الكتاب المذكور ص ١١٥ وما بعدها .

الفصـــل الثالـــث :

في بيان الحالة العلمية والثقافية في عصر التاج

وتحته ستة مباحث :

المبحث الاول : في تصوير النشاط العلمي ومطارحة العلماء في ذلـــك العصـــر

المبحث الثاني : في التدرج في التعليم .

المبحث الثالث : في ذكر أسباب ازدهار الحياة العلمية آنذاك .

المبحث الرابع : في اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء .

المبحث الخامس : في ظهور شخصية العلماء ودورهم في جهاد التتار

المبحث السادس : في الكلام على التقليد والتعصب المذهبي لدى طوائف الناس .

المبحث الأول

في تصوير النشاط العلمي ومطارحة العلماء في ذلك العصر

إن القرن الثامن الذي عاش فيه التاج السبكي يعد امتداداً للقرن السابع الذي سبقه، ففي هذين القرنين انتعشت علوم الاسلام وكثرت التأليفات والمصنفات وبرز علماء أجلة فضلاً في علوم الاسلام قاطبة(١) ، وفي كافة الفنون وملات مؤلفاتهم أقطار الأرض شرقا وغربا وبلغت من الكثرة بحيث لا تحصى عددا ولقد كان العلماء في هذا العصر يمتازون بسعة العلم وصفاء الفكر ورحابة الصدر والمناقشة العلمية الجادة .

---

(١) وجد في ذلك العصر من الفقهاء والمحدثين والمفسرين واللغويين والمؤرخين نوابغ جهابذه أثروا المكتبات الاسلامية بمؤلفاتهم وقاموا بنشر العلم في بلدان متعددة . فمن المحدثين مثلا النووي ، وابن دقيق العيد، والحافظ المزي والحافظ الذهبي والحافظ الدمياطي ، وآخرون ، ومن أعلام الفقهاء والأصوليين : الأمدي وابن الحاجب ، والعز بن عبد السلام والقرافي، وابن تيمية ، وابن القيم ، والاسنوي ، والزركشي ، وكثير من أفراد البيت السبكي ، ومن النحويين والأدباء واللغويين ابن هشام الأنصاري، وابن مالك، وأبو حيان، وابن عقيل وابن منظور صاحب اللسان ، والفيومي صاحب المصباح المنير ، والزبيدي صاحب تاج العروس، والصلاح الصفدي وغيرهم ، ومن المؤرخين ابن خلدون، وابن خلكان، وابن كثير، والمقريزي، وإلى ماشاء الله . . وكتبهم ومؤلفاتهم معروفة مشهورة لا نطيل الحديث بذكرها وابراز مزاياها ومحاسنها فإنها في متناول الجميع ، كما نبغ في هذا العصر أيضا كثير من النساء الفضليات ومنهن على سبيل المثال الشيخة العابدة العالمة الصالحة زوجة الامام الحافظ جمال الدين المزي أم فاطمة قارئة القرآن ، قال ابن كثير ١٤ / ١٦٤ : " كانت عديمة النظير في نساء زمانها لكثرة عباداتها وتلاوتها وقرأتها للقرآن العظيم بفصاحة وبلاغة وأداء صحيح يعجز كثير من الرجال عن تجويده ، قرأ عليها من النساء

فكان الواحد منهم يبحث المسألة من مسائل العلم المختلفة ويؤلف فيها كتابا حافلا مليئا بالحجج والبراهين يبدى فيها رأيه واجتهاده ، ثم يناضل عما ذهب إليه واختاره ، بكل مايراه ، ويستطيع إيراده ، فيوافقه قوم ويعارضه آخرون .

وقد يقوم المعارض فيصنف ردا وافيا على ماقرره الأول ، يحشد فيه من الأوجه والدلائل مايقوى مذهبه ويضعف جانب خصمه ، وهكذا دواليك لا يخفت لهم صوت ، فمثلا : نجد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يصدر فتواه في مسألة الحلف بالطلاق فيرد عليه الشيخ الامام السبكى رحمه الله فى مصنف ضخم ، ثم يرد الشيخ ابن تيمية على رد القاضى السبكى فى مصنف آخر يقوى فتواه ويدحض حجج خصمه (١) .

ثم يفتى مرة أخرى فى منع شد الرحال إلى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيعارض السبكي ويصنف فى الرد عليه كتابا سماه " شفاء السقام فى زيارة خير الأنام " .

ثم يرد على السبكى تلميذ ابن تيمية الشيخ محمد بن عبد الهادى المقدسى (٢) بكتاب حافل سماه " الصارم المنكى فى الرد على السبكى " وهكذا .

خلق عظيم توفيت رحمها الله سنة ٧٤١ ، ومنهن أيضا بنت التاج السبكى رحمه الله : قال السخاوى : "هى صالحة ابنة التاج عبد الوهاب بن على ابن عبد الكافى السبكى أجازلها العز ابن جماعة وغيره ولقيها الزين رضوان فاستجازها قال السخاوى وأظن أننى قرأت عليها شيئا" وغيرهن كثير انظر الضوء اللامع ١٢ / ٧٠ .

(١) قال فى الطبقات . ١ / ١٩٥ : " وهذا الرد الذى لابن تيمية لم يقف عليه الوالد ولكنه سمع به ، وأنا وقفت منه على مجلد ، قال التاج : "وقد كان الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله لا يعظم أحدا من أهل العصر كتعظيمه للشيخ الامام الوالد ، وكان كثير الثناء على مصنفه فى الرد عليه فى مسألة الطلاق " .

(٢) وقد كان الشيخ محمد بن عبد الهادى (ت ٧٤٤) أحد أذكياء العالم : قال عنه الذهبى "ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه" انظر الدرر الكامنة ٣٣٢/٣ .

فقد كان هذا العصر عصر علم ومطارحة ومساجلة بين العلماء وفيه من المناظرة وشحذ الأذهان مالم يكن فى غيره .

وهذه الروح اليقظة لدى العلماء أدت إلى التبحر فى العلم وصقل المواهب وتوسعة المدارك فأصبح فى القوم جبال علوم .

وكان الواحد منهم يعد موسوعة علمية متكاملة فى شتى فنون العلم والمعرفة مما أثرى الحياة العلمية فى هذا العصر إثراء بالغا ، وترك بصماته واضحة على القرون المتعاقبة بعده حتى الآن .

وفى ظل هذه الحركة العلمية النشطة ترعرع التاج السبكى ووجد طبقة من جهابذة العلماء تلقى على أيديهم ، وعب من أفكارهم و أخذ عنهم الكثير .

فتكونت شخصية المتميزة الجامعة بين الفقه والأصول ، والحديث ، والأدب ، والتاريخ ، وغير ذلك .

هذا وقد كان لنظام التعليم فى عصر التاج منهج قويم يسير عليه الطلاب والمعلمون ، وفق تدرج محكم سنوجزه إليك فى المبحث التالى . . .

المبحث الثاني

التدرج في التعليم

لقد كان للانتعاش العظيم لعلوم الاسلام الذى برز فى العصر المملوكى بعد الركود المميت الذى أصاب هذه العلوم إبان غزو التتار لعاصمة الخلافة بغداد ، وإهلاكهم معظم تراث الاسلام وعلمائه وخليفته وولاته أثر واضح فى حياة الناس من الخاصة و العامة .

فهذه المصيبة العظمى التى حلت بالاسلام وأهله ، وتراثه أيقظت فى الأمة الحماس الدينى وأشعلت فى نفوسهم الغيرة على الاسلام وعلومه من جديد .

فانبرى علماء الامة لهذا الأمر ، وجاهدوا فى تحقيقه ، وقاموا بتعويض مافقد من تلك العلوم العظيمة عن طريق المدارسة والتعليم ، ضمن منهج إسلامى أصيل يبدأ فيه بالأهم فالمهم فى مسلسل محكم ، وترابط شديد يأخذ بعضه بحجز بعض ، لكافة فنون العلم والمعرفه فى ذلك العصر ، فكان المتعلم يبدأ أولا بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظا وتجويدا وتفسيرا ، ثم يطلع على سائر علومه ويجتهد فى اتقان كل مايتصل بكتاب الله من علوم الآلة وغيرها لأنه أصل العلوم وأمها وأهمها ، ثم يعرج على بقية الفنون فيحفظ من كل فن مختصرا يعينه على الالمام بمعالم ذلك الفن ، ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ ، حتى يتقنها جيدا (١) .

---

(١) قال التاج فى معرض كلامه على المدرسين وكيف ينبغى أن يتدرجوا فى تعليم الطلاب من الأدنى إلى الأعلى قال : " وحق على المدرس أن يحسن القاء الدرس وتفهيمه للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة من التحقيق ، وإن كانوا منتهين فلا يلقى عليهم الواضحات بل يدخل بهم فى مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر . " انظر معيد النعم ص ١٠٥ .

فإن تحققت أهليته وتأكدت معرفته ، وسَع نظره في كافة الفنون ، فلا يدع فنا من العلوم الشرعية إلا نظر إليه وتبحر فيه قدر وسعه وإمكانه .

ثم يشتغل بسماع الحديث النبوى ، وعلومه وينظر في أسانيده ورجاله ، ومعانيه وأحكامه وفوائده ، ولغته وتواريخه ، فيعب من ذلك كله قدر طاقته واحتماله مبتدئا بأهم كتبه صحيحى البخارى ومسلم ، ثم بقيه كتب السنة والأصول المعتمدة في هذا الشأن ، ويعتنى بمعرفة صحيح الحديث وحسنه وضعيفه ومسنده ومرسله وسائر أنواعه رواية ودراية .

وهكذا سائر علوم الاسلام ، من نحو وصرف وبلاغة وآدب وفقه وأصول وغير ذلك ، فإذا كملت أهليته وظهرت فضيلته ومر على أكثر كتب الفن بحثا ومراجعة ومطالعة استقل بعد ئذ بالتصنيف وانتقل إلى مصاف المؤلفين وهكذا (١) .

---

(١) راجع في هذا المعنى تذكرة السامع والمتكلم ص ١١٢ وما بعدها ، معيد النعم ص ١٣٠ .

المبحث الثالث

فى أسباب ازدهار الحياة العلمية فى عصر المماليك

إن أهم هذه الأسباب فى رأيي يعود إلى طبيعة نظام التعليم الاسلامي سواء فى عهد المماليك أو فى غيره من العصور الاسلامية المتعاقبة .

فهو نظام فريد يتميز بالمرونة وتيسير طلب العلم لكل راغب فيه ولا غرابة فى أن يكون المسلمون أحرص الناس على طلب العلم وتيسير وسائله فالقرآن والسنة مليئان بالنصوص التى تحث على ذلك .

وقد كان المسلمون ينشئون المساجد والجوامع للصلاة أينما حلوا وهي تبقى مفتوحة الأبواب لكل الناس وفى جميع الأوقات لا يمنع من دخولها والمكث فيها أحد، فاذا قضيت الصلاة،فلا حرج على من فى المسجد أن يتكلموا فيما يشاؤون ، ويبحثوا مايريدون،فمن كان عنده علم بذله للناس فى المسجد لمن أراد أن يستمع .

ومن هنا كانت المساجد والجوامع من كبريات المدارس التعليمية وكان الخيرون يوقفون على تلكا لمساجد أوقافا طائلة،تكفى للقيام بمستلزماتها ومستلزمات الطلبة والمدرسين فيها من إعاشة وسكن ومراجع علمية وغير ذلك . ولم يكن التدريس ولا طلب العلم مقصورا على أهل البلد فقط،فالاسلام نظام إنسانية شاملة لا وطنية محدودة ، . فللعالم من أى بقعة من بقاع الأرض أن - يعرض علمه فى المسجد ، وللطالب من أى قطر أن يستمع إلى من يشاء وإلى من يعجبه من العلماء والأساتذة،وإلى المادة التى تروقه من مواد التعليم المختلفة .

نظام فيه ميزة فتح باب التعليم والتعلم على مصراعيه واطلاق الحرية العلمية للأستاذ والطالب جميعا،كما أن من هذه الأسباب أيضا أن فترة عصر المماليك جاءت بعد كارثة بغداد على يد التتار واستئصالهم بيت الخلافة

العباسية هناك ومحوهم آثار الفكر الثقافي الاسلامي برمته ، كما هو معـــروف في مصادر التاريخ من إبادة علماء الاسلام في تلك الكارثة المدمرة وإحراق كتبهم واجتثاث كافة مصادر العلم والتراث الاسلامي هناك واغراقه في البحر كمـــا قد مربك [1] ، فكان لهذا الفعل الهمجي رد فعل مساو له في القوة ومضـاد له في الاتجاه . فانبرى العلماء لذلك وتوافدوا على مصر والشام من كل حـدب وصوب .

وحدب عليهم كثير من السلاطين و الأمراء ومنحوهم الامتيازات اللازمة والتشجيع الكامل من الناحيتين المادية والمعنوية خاصة في عاصمة الخلافـة الجديدة " القاهرة " فازدهرت الحركة العلمية من جديد ونهضت من كبوتها كأقوى ماتكون بحثا وتدقيقا وتأصيلا وتصنيفا ، وسنرى في المبحث التالي صورا مشرقة من جهد ولاة الأمر في هذا السبيل .

---

(١) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٤٦٧ ومابعدها حسن المحاضـرة ٢/٥٢ النجوم الزاهرة ٧/٧٢ ، البداية والنهاية ١٣/٢٠١ الطبقات ٨/٢٧١ .

المبحث الرابع

اهتمام الأمراء بالعلم والعلماء

لا أحد ينكر ما للأمراء من دور كبير فى تشجيع العلم والنهوض به فكم عصر ارتفع فيه العلم وكثر انتاج العلماء فيه بسبب أُمرائه، والعكس بالعكس وقد يما قيل (الناس على دين ملوكهم) .

فنلاحظ فى عصر المماليك ظاهرة تشجيع الأمراء للعلم والعلماء وعقدهم الندوات والمجالس العلمية الجامعة، مما كان له أثر بارز فى دفع الحركة العلمية فى المجتمع، لذلك فقد انتشرت المدارس العلمية فى هذا العصر انتشارا واسعا فى كافة أرجاء البلاد وكانت أغلب هذه المدارس متخصصة فى تدريس أنواع معينة من العلوم فبعضها كان لتدريس الفقه إما على المذاهب الأربعة كالمدرسة الصالحية (١) وإما على مذهب معين من هذه المذاهب كالمدرسة العادلية الكبرى بدمشق ، وكانت وقفا على تدريس الفقه الشافعى (٢) .

وبعض المدارس كانت خاصة بتدريس الحديث النبوى فيوقفها منشوءها

---

(١) المدرسة الصالحية هى عبارة عن أربع مدارس للمذاهب الأربعة بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤١ هـ آخر ملوك الدولة الأيوبية قال المقريزى :" وهو أول من عمل بديار مصر دروسا أربعة" انظر الخطط ٤/ ٢٠٩ ، حسن المحاضرة ٢/ ٢٥٥ .

(٢) هذه المدرسة أول من أنشأها الملك نور الدين زنكي وتوفى ولم تتم ثم أكملها الملك العادل سيف الدين وجعل لها الأوقاف الكثيرة وهى من اكبر المدارس الشافعية بدمشق .
وقد سكنها ودرس بها جلة من العلماء منهم التاج السبكي رحمه الله ، انظر الدارس ١/ ٣٦٧ .

على المشتغلين بالحديث وعلومه كالمدرسة الأشرفيه [١] وغيرها .

وبعضها كان للتفسير أو القراءات أو غير ذلك . غير أن هناك من بين هذه المدارس مدارس كبرى، كانت أشبه ماتكون بالجامعات فى وقتنا الحاضر حيث يدرس بها مختلف العلوم والتخصصات من فقه و حديث وقراءات وتفسير ونحو وغيرها كالمدرسة الظاهرية بدمشق، وهى اليوم مقر المكتبة الظاهرية [٢] .

هذا وقد حرص العلماء على أن يلتزم المعلمون بتدريس فروع العلم التى بنيت المدرسة من أجلها وشدد بعضهم فى ذلك فاعتبر من لم يلتزم من المعلمين بتدريس ما نص عليه واقف المدرسة وتعداه إلى غيره من الدروس فإن ذمته لاتبرأ بذلك .

قال التاج رحمه الله :" وعندى أن الذمة لاتبرأ فى المدرسة الموقوفة على الفقهاء إلا بالقاء الفقه ، فإن كان المدرس لا يلقى الفقه رأسا فهو آكل حرام إن كان يأكل من أوقافها، وكذلك نقول فى مدرسة التفسير إذا ألقى مدرسها غير التفسير، ومدرسة النحو إذا ألقى مدرسها غير النحو وهكذا . .

فالأحوط من هذا كله الالقاء من الفن الذى بنيت له المدرسة، فإن الواقف لو أراد غير ذلك الفن لسماه ، وإن كان يلقى الفقه مثلا فى مدرسة الفقهاء غالبا ، ولكنه ينوع فى بعض الأيام فيذكر تفسيرا أو حديثا أو غيره من

---

(١) وهذه المدرسة بناها الملك الأشرف مظفر الدين بن موسى العادل (ت٦٣٥) ووقف عليها الاوقاف الكثيرة وجعل شيخها الشيخ تقى الدين بن الصلاح حيث افتتحها سنة ٦٣٠ وأملى بها الحديث، وكان من شرط الملك الأشرف فى الشيخ الذى يتولي هذه المدرسه أنه اذا اجتمع من فيه الرواية ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية ثم تولاها بعد ابن الصلاح عماد الدين ابن الخرستانى ثم أبو شامة ثم النووى ثم الفارقى ثم ابن الوكيل .

ثم ابن الزملكانى ثم المزى ثم تقى الدين السبكى ثم ابن كثير ثم شيخنا تاج الدين السبكى ، انظر الدارس ١ / ١٩ .

(٢) انظر الخطط ٢ / ٣٢٨ .

العلوم الشرعية بقصد التنويع على الطلبة وبعث عزائمهم فلا بأس غير أن - الأحوط خلافه (١) .

هذا ومن المناسب هنا أن نذكر بعضا من هذه المدارس على سبيل المثال لتوضيح الصورة وهى :

١) **المدرسة المنصورية** : أنشأها الملك المنصور قلاوون الصالحى ورتب بها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة ودرسا للطب ودرسا للحديث النبوى ودرسا للتفسير وميعادا ، وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجلة الفقهاء المعتبرين (٢) .

٢) **المدرسة الظاهرية** بالقاهرة بناها الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ وجعلها للشافعية والحنفية ، وجعل بها خزانة للكتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم . وبنى بجانبها مكتبا لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الجرايات والكسوة .

قال المقريزى " وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة " (٣) وفيها يقول أحد الشعراء :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى . . ومن يتعالى فى الثواب وفى الثناء
لقد ظهرت للظاهر الملك همة . . بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت . . له فى غد فاختار تعجيلها هنا

٣) **المدرسة الفاضلية** وهي للمالكية والشافعية وبها مكتبة عظيمة .

---

(١) انظر معيد النعم ص ١٠٧ .

(٢) انظر المقريزى ٣ / ٣٤٢ .

(٣) الخطط ٣ / ٣٤٠ ومابعدها : وانظر ايضا البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ١١٦ ، ١٣٠ / ١٣٩ ، الدارس ٢ / ٢٩ ومابعدها .

٤) **المدرسة العمرية الشيخية** وهي من مدارس الحنابلة بدمشق أنشأها ابن قدامة وهى على ماقيل من أكبر مدارس دمشق يوجد بها ٣٦٠ خلوة وخزانة كتب مهمة وقد درّس بها من أعلام الحنابلة عدد كبير(١).

٥) **المدرسة الجوزية** أنشأها أبو الفرج ابن الجوزى وهى من أحسن مدارس الحنابلة بدمشق .

٦) **المدرسة الاقبالية** تكامل بناؤها سنة ٦٢٨ وكان يوما مشهودا اجتمع فيه جمع كبير من المدرّسين والمفتين ، ببغداد ، ورتب فيها خمسة وعشرون فقيها ، وجعل لهم الجوامك الدارة فى كل شهر ، والطعام فى كل يوم ، والحلوى فى أوقات المواسم ، والفواكه فى زمانها ، وخلع على المدرسين والمعيدين والفقهاء يومئذ الخلع الكثيرة(٢) .

٧) **المدرسة العادلية الصغرى** أنشأتها بنت الملك العادل سيف الدين ، ووقفت عليها أوقافا عظيمة وشرطت للمدرسة مدرسا ومعيدا وإماما ومؤذنا و نوابا وقيما وعشرين فقيها .

٨) **المدرسة العذراوية** أنشأتها بنت أخ صلاح الدين الأيوبى قائم بيت المقدس ، وقد درس بها شيخنا التاج السبكى(٣)

٩) **دار الحديث الناصرية** بناها الملك صلاح الدين الأيوبى وتسمى دار الحديث البرانية ، وبها الرباط الناصرى الذى بناه الملك لنفسه بسفح قاسيون عقب فراغه منها .

١٠) **دار الحديث السكرية** : قال ابن كثير ١٤ / ١٦٠ "أكمل بناء هذه الدار سنة ٧٣٩ وباشر مشيختها الحافظ شمس الدين الذهبى ، وقرر

---

(١) انظر المقريزى ٣ / ٣٤٠ وما بعدها الدارس ١ / ١٩ وما بعدها ، ١ / ١٥٥ ، ١ / ١٥٩ .

(٢) الدارس ١ / ١٥٩ .

(٣) الدارس ١ / ٣٧٨ .

فيها ثلاثون محدثا لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ، ونصف رطل من الخبز ، وقرر للشيخ ثلاثون رطلا من الخبز ، وقرر فيها ثلاثون نفرا يقرءون القرآن ، لكل عشرة شيخ ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ، ورتب لها إمام وقارى حديث ونواب ، ولقارىء الحديث عشرون درهما وثمان أواق من الخبز ، قال وجاءت في غاية الحسن في شكالاتها وبنائها ووقف عليها الأوقاف العديدة .

وذكر أن الأمير شيخون في سنة ٧٥٨هـ ابتنى مدرسة هائلة وجعل فيها المذاهب الأربعة وداراً للحديث ووقف عليها شيئا كثيرا ، وقرر فيها معاليم لطلابها والمقرئين فيها (١) إلى غير ذلك من المدارس ودور العلم وما أكثرها ، وانظر للمزيد كتاب الدارس للنعيمي تجد فيه بغيتك ، ولا شك أن هذا العدد الوفير من المدارس العلمية ، التي تدرس المذاهب المختلفة إلى جانب حلقات الأجلاء من العلماء الأئمة الجهابذة كان يخلق جوا علميا ممتازا لا يشعر الطالب فيه بملل ولا فتور ، بل هو دافع قوى للاستزادة العلمية والبحث والموازنة والتحقيق والتحرير .

نخلص من هذا أن الاضطراب السياسي والهرج والمرج الذي كان سائدا في عصر المماليك بسبب الحروب الخارجية والفتن الداخلية لم يؤثر على الحياة العلمية في شيء ، بل ظلت نشطة وقائمة على قدم وساق ، وقد ساعد على نشاطها أن حكام ذلك العصر الذين كانوا يحكمون دولة الاسلام كانوا غيورين على الاسلام الذي يحاربه التتار في الشرق ويقتلون علماءه ويتلفون كتبه ، كما كان يفعل ذلك الصليبيون في الغرب (١) .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٦٠ ، ١٤ / ٢٢٢

(٢) انظر الدرر الكامنة ٤ / ٤٣٨ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٦٥ .

لذلك فقد أحاط هؤلاء الحكام أنفسهم بكوكبة من علماء الأمه وشجعوا المشتغلين بالعلم وأجزلوا لهم المكافأت، وأكثروا من بناء المدارس، وخزائن الكتب، الملحقة بها ومساكن الطلبة ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة كما قد عرفت .

ولقد كان للدولة الأيوبية يد طولى في بناء المدارس العلمية المتكاثرة في طول البلاد وعرضها، وكان عندهم من حب العلماء واحترامهم ورفعة شأنهم مالا نطيل بذكره ، ثم سار سلاطين المماليك على نهج ملوك بنى أيوب وإن لم يكن بنفس القوة ، لذلك كثرت المنشأت التعليمية التى كانت تتناول التعليم في جميع مراحله من أوله إلى منتهاه كما قد مر بك[1] .

---

(١) وقد أسهمت المساجد والجوامع إسهاما عظيما ومباركا في هذه الناحية فكانت تقام فيها حلقات العلم والتدريس ويفد إليها الطلاب من جميع الجهات ، ومن أهمها جامع عمر بن العاص الذى أسس بمدينة الفسطاس بعد الفتح الاسلامى لمصر وقد اتسعت الدراسة بهذا الجامع فى عصر التاج حتى بلغت على ماقيل في عام ٧٤٩ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم : كما ذكره المقريزى ٢ / ٢٣٥
وهناك الجامع الأزهر وجامع ابن طولون وغيرها من مساجد مصر العامرة ، وفى الشام الجامع الأموى بدمشق وهو أكبر مؤسسة تعليمية فى ذلك الوقت فقد كان به عدد وفير من الحلقات العلمية التى تشتغل بالعلم وتدريس القرآن الكريم والحديث الشريف وعلومهما ، كما كان به عدد ضخم من المدارس المتخصصة فى شتى فنون العلم والمعرفة وصار هذا الجامع مفخرة العلم والعلماء فى ربوع الشام فى ذلك العصر ومما قيل فى وصفه :

كأن حيطانه زهر الربيع فما . . يمله الطرف فهو الدهر منظور
يتلى القرآن به فى كل ناحية . . والعلم يذكر فيه والتفاسير

انظر كتاب الدارس ١ / ٢١٣ ، ٢ / ٤٦ ، البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥ ، الدرر الكامنه ٤ / ٤٤٠ .

المبحث الخامس

فى ظهور شخصية العلماء ودورهم فى جهاد التتار

تميز العصر المملوكي بعلماء أجلة اتصفوا بقوة الشخصية ومن ثم التأثير على الأمراء وردهم إلى جادة الصواب كلما حاولوا انتهاك حقوق المسلمين، وعدم السكوت والخضوع لهم، إذا خرجوا عن إطار الشرع الشريف، وقد نقل لنا التاريخ نماذج عالية من مواجهة العلماء للحكام فى هذه الفترة فالعز ابن عبد السلام رحمه الله يصمم على بيع المماليك وهم أمراء الدولة (١) ويمنع السلطان قطز من الاقتراض من أموال التجار إبان معركة عين جالوت ، والامام النووى يأمر السلطان باخراج عدة الجهاد من مقتنيات دار السلطنة ويمنعه من فرض ضرائب أو أخذ أموال من سائر الرعية إلا بعد نفاذ ما فى حوزته (٢) ، وشيخ الاسلام ابن تيمية يشن حملة شعواء على من تقاعس من الأمراء عن حرب التتار ويفتى العامة بوجوب جهادهم باعتبارهم خوارج مارقين عن دولة الاسلام ثم يتقدم صفوف الجهاد فى بعض المعارك (٣) .

---

(١) قال التاج" وكانت لهعظمة عندهم وهيبة بحيث لا يستطيعون مخالفته " انظر الطبقات ٨ / ٢١٥ .

(٢) راجع الطبقات ٨ / ٣٩٥ ومابعدها .

(٣) حين وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام سنة ٧٠٠هـ انزعج الناس لذلك جداً وطاشت عقولهم وألبابهم وشرعوا فى الهرب، فانبرى شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يحرض الناس على القتال وينهاهم عن الفرار ويرغبهم فى الانفاق فى سبيل الله وصد الأعداء عن بلاد المسلمين قال ابن كثير:" فهدأ الناس عند ذلك وسكن جأشهم وطابت قلوبهم بما رأوه منه واشتعلت فيهم روح الجهاد فوعدهم النصر والظفر على الأعداء ثم ذهب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء إلى دمشق ومنازلة التتار فأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان والوزراء وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج : قال وفى سنة ٧٠٢ وقعت معركة

والشيخ تقى الدين السبكي وولده تاج الدين ينكران على الحكـــام والأمراء ماهم فيه من الترف والبذخ والأبهة الزائدة ويحثانهم على إنفاق ذلك فى جهاد أعداء الاسلام من اليهود والنصارى وأهل الأهواء من الزنادقـــة والرافضة وغيرهـــم[1] .

= شديدة تسمى وقعة شقحب بين المسلمين والتتار فانتصر المسلمـــون بقيادة الشيخ ابن تيمية على التتار وهزموهم شر هزيمة وتحقق نصر الله على يده رحمه الله ورضى عنه . . " .
انظر البداية والنهاية ١٣/١٤ ومابعدها .

(١) انظر للتدليل على ذلك الطبقات ٢/٥٩ ، ١٠/١٦٨ ، ١٠/٢٠٨ ، معيد النعم ص ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ومابعدها .

المبحث السادس

في ذكر التقليد والتعصب المذهبي

على الرغم من أن القرن الثامن الهجرى يعد بحق فخرا للعلم والعلماء لما واكبه من نبوغ علمي فريد في كافة التخصصات العلمية إذ ازدهرت فيه الناحية العلمية وبلغت أوجها وظهر على إثر ذلك علماء أجلاء في كافة فنون العلم والمعرفة إلا أن روح الابتكار والتجديد لم تواكب هذا الحماس العلمي النشط، فالناظر في مؤلفات هذا العصر يلحظ أنها كانت تحصيلا لما سبقه من كتب الأقدمين فكانت كلها أو جلها لا تعدو أن تكون اختصارا أو شرحا أو تلخيصا لكتب الأولين ولعل سبب شيوع هذه الظاهرة في ذلك العصر أن - العلوم الشرعية واللغوية كانت قد نضجت وأفعمت بمؤلفات السابقين ومصنفاتهم فلم يبق مجال لعلماء هذا العصر إلا الاختصار والشرح والتعليق وتبسيط هذه العلوم وصياغتها بلغة العصر .

ولا يعني هذا أنه لم تظهر في هذا العصر مؤلفات قائمة بذاتها وفيها تجديد وابتكار بل قد وجدت مؤلفات من هذا النوع ولكنها ليست كثيرة كبعض مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والحافظ الذهبي والتقي السبكي وغيرهم .

لكن الغالب الأعم من مصنفات هذا العصر لا يعدو أن يكون تابعا لما تقدمه من المصنفات ولذلك فقد كان العلماء شديدى التمسك بما ورثوه من مذاهب الأئمة عاضين عليه بالنواجذ ، وفي هذا المعنى يقول التاج السبكي رحمه الله مغتبطا بانتمائه إلى المذهب الشافعي :

" ونحن نحمد الله تعالى الذى جعلنا مقلدين لإمام إذا طمحت نفوسنا في وقت من الأوقات إلى النظر في دليل مسئلة من مسائله أدانا النظر

إلى ماكنا مقلدين له فيه ، فإن ذلك مما يشرح الصدر ويطمئن القلب على مانحن عليه من تقليدنا لهذا الامام . . "(١) .

وهذا من العلماء أمر محمود أن ينظروا فى مآخذ الأئمة ودلائلهم في مسائل العلم المختلفة فيصلوا إلى النتيجة نفسها أو غيرها ، ولكن هذه الأهلية ليست بالأمر اليسير بل هى عقبة كأداء لا يقتحمها إلا جهابذة العلماء ، وأما سائرهم ممن شدا طرفا يسيرا من العلم فيكتفون بالتقليد ، وهذا لاغبار عليه ، إن لم يصاحبه الاعتقاد الجازم بأن ماعليه إمامهم هو الحق ، وما خالفه فهو مردود ، وإن كان الدليل بجانبه فهذا هوالتعصب الأعمى(٢) وهذا النوع من الناس لاتجدى معه مناقشة ولا ينفعه حوار ولذلك فقد حاول كثير من العلماء معهم فلم يفلحوا وبقى الأمر على ماهو عليه .

قال العز بن عبد السلام فى قواعده :" ومن العجب العجاب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ومع هذا يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جمودا على تقليد إمامه .

قال :" فالبحث مع هؤلاء ضائع مفض إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها ، وما رأيت أحدا رجع عن مذهب إمامه إذا ظهر له الحق فى غيره . فالأولى ترك البحث مع هؤلاء "(٣) .

ويقول التاج رحمه الله منكرا على هذا الصنف من الناس :" ومن العلماء من تأخذه فى الفروع الحمية لبعض المذاهب ويركب الصعب والذلول فى التعصب لها وهذا من أسوء أخلاقه ، ولقد رأيت فى طوائف المذاهب من يبالغ فى التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض ، إلى غير ذلك ممايستقبح

---

(١) انظر الطبقات ٤/٣٤٣ .

(٢) لان الواجب هو اتباع الدليل أينما كان ومع من كان إذ هو الذى أوجب الله اتباعه وحرم مخالفته وجعله الميزان الراجح بين العلماء فمن كان بجانبه كان أسعد بالصواب ومن حاد عنه زلت به القدم وأخطأ فى المرام.

(٣) انظر القواعد الكبرى ٢/١٣٥ .

ذكره . . " (١)

فانظر كيف ضرب التقليد والعصبية المذهبية أُدمغة كثير من الفقهاء وأتباع المذاهب فتحجرت أفكارهم واشتد تعصبهم لأقوال الرجال .

وكانت نتيجة ذلك شيوع الارهاب الفكرى وانتشار الاختلافات العقائديه والمنازعات المذهبية وما صاحبها من خصومات واضطرابات فى علاقات الأفراد والجماعات حتى صارت الجماعات فى المسجد الواحد تتعدد حسب الانتماءات المذهبية ، نعوذ بالله من الخذلان .

وبعـــد . .

فهذا هو الجو العلمى المشرق الذى نشأ فيه التاج السبكى رحمه الله وهذه بعض ملامح الحياة العلمية التى كانت تسود عصره آنذاك . . فلاغرابة إذاً أن يبرز هذا العملاق ويشارك فى هذا المعترك العلمى المتقد بتراثه الخالد ومؤلفاته العظيمة فى شتى العلوم والمعارف والتى باتت مفخرة من مفاخر العصر ومشعل ضياء للاجيال اللاحقة .

---

(١) انظر معيد النعم ص ٧٤ .

البـــاب الثانـــــى

فى دراسة حياة التاج السبكى وكتابه والمكانة العلمية التى وصل إليهـا

وتحته سبعة فصول :

الفصـــل الأوُلـــ :

فـــى حياتـــه العلميـــــــــــة

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأوُل : فى مولـــــده

المبحث الثانى : فى اسمه ونسبه

المبحث الثالث : فى نشأته وطلبه للعلم

المبحث الرابع : فى عقيدتـــــه

المبحث الخامس : فى شيوخـــــه

المبحث السادس : فى تلاميـــــذه

المبحث السابع : فى ثناء العلماء عليـــه

المبحث الأول

مولده

اختلف المؤرخون في مولد التاج السبكي رحمه الله فذكر ابن حجر والشوكاني [١] أنه ولد عام ٧٢٧هـ وذكر الزبيدي و السيوطي أنه ولد عام ٧٢٩هـ بالقاهرة [٢] .

والأكثر على أن ولادته كانت عام ٧٢٨ هـ وقد نص على هذا شيخه الحافظ شمس الدين الذهبي في المعجم المختص [٣] ، وبذلك يوافق مولده عام موت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله كما وافق مولد الامام الشافعي عام موت الامام أبي حنيفة رحمهما الله تعالى [٤] وهذا من توافق الأقدار .....

فسبحان الذي قدر فهدى، وأمات فأحيا

فما أن يموت علم من أعلام الاسلام إلا ويبعث الله على إثره علما آخر يقوم برفع راية الدين ، وتوضيح سبل الهداية واليقين .

إذا مات منا سيد قام سيد .. قؤول لما قال الكرام فعول

---

(١) انظر الدرر الكامنة ٢ / ٤٢٥ ، البدر الطالع ١ / ٤١٠ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٢١ .

(٢) راجع تاج العروس ٧ / ١٤٠ حسن المحاضرة ١ / ٣٢٨ .

(٣) انظر ذلك ص ١٥٢ وراجع الثغر البسام ص ١٠ ، فهرس الفهارس والاثبات ٢ / ١٠٣٧ ، كتاب الوفيات ٢ / ٣٦٣ .

(٤) كان موت أبي حنيفة وولادة الشافعي في عام ١٥٠ هـ.

المبحث الثاني

اسمه ونسبه

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي ابن تمام بن يوسف بن يحي بن عمر بن عثمان بن علي بن سوار بن سليم السبكي[1]، وبعضهم يزيد الخزرجي الأنصاري ، وقد وردت هذه الزيادة في نسخة (ب) من كتابنا هذا[2] .

واعتمدها كثير من العلماء والشعراء، فأوصلوا نسبته إلى الأنصار ومن هؤلاء الشاعر ابن نباتة، والصلاح الصفدي وآخرون[3] .

قال التاج في ترجمة والده :" وقد كانت الشعراء يمدحونه ولا يخلون قصائدهم من ذكر نسبته إلى الأنصار وهو لا ينكر ذلك عليهم . وقد كان رحمه الله أورع وأتقى لله من أن يسكت على ما يعرفه باطلا، وقد قرأ عليه شاعر العصر

---

(١) قال الزبيدي في تاج العروس مادة (سبك) والسبكي نسبة إلى سبك قرية من أعمال المنوفية بمصر وتعرف الآن بسبك الأحد منها شيخنا تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي . . " .

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢ / ٤٢٥ ، البدر الطالع ١ / ٤١٠ شذرات الذهب ٦ / ٢٢١ ، الاعلام ٤ / ١٨٤ حسن المحاضرة ١ / ٣٢٨ ، تاج العروس ٧ / ١٤٠ ، الثغر البسام ص ١٠٣ ، النجوم الزاهرة ١١ / ١٠٨ ، الدارس في تاريخ المدارس ١ / ٣٧ ، المعجم المختص ص ١٥٢ .

(٣) ذكر التاج أن الشيخ الصفدي ترجم لوالده في كتاب (أعيان العصر) فقال عنه " قاضي القضاة أوحد المجتهدين تقي الدين أبو الحسن الأنصاري الخزرجي السبكي الشافعي . . " ، إلى آخر الترجمة : وذكر قصيدة ابن نباتة التي رثا بها الشيخ الامام وفيها قوله :

نعاه للفضل والعلياء والنسب . . ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
وقال موت فتى الأنصار مغتبطا . . الله أكبر كل الحسن في العرب

انظر الطبقات ١٠ / ٩٣ ومابعدها ، ١٠ / ١٥١ .

ابن نباتة غالب قصائده التى امتدحه بها وفيها يذكر نسبته إلى الأنصار والشيخ الإمام يقرؤه وسمع له قصيدته التى يقول له فيها :

من بيت فضل صحيح الوزن قد رجحت . . به مفاخر أباء وأبنـــــاء
قامت لنصرة خير الأنبياء ظبـــــا . . أنصاره واستعاضوا خير أبنـاء
المعربون بألفاظ ولحن ظبـــــا . . ناهيك من عرب فى الخلق عرباء

إلى آخر القصيدة المذكورة ، وكتب عليها طبقة السماع بخطه ، ولولا أنه رأى ذلك حقا ماكتبه بخطه لما أعلمه من ورعه وشدته فى ذلك . . " .

وذكر التاج فى موضع آخر من الطبقات مانصه : " نقلت من خط الجد رحمه الله نسبتنا معاشر السبكية إلى الأنصار رضى الله عنهم .

قال : وقد رأيت الحافظ النسابة شرف الدين الدمياطي رحمه اللـــه يكتب بخطه للشيخ الامام الوالد رحمه الله " الأنصارى الخزرجى" . . .

ثم قال : ولم يكتب الشيخ الإمام رحمه الله بخطه لنفسه الأنصارى قـط ، وإن كان شيخه الدمياطي يكتبها له ، وإنما كان يترك الشيخ الامام كتابة ذلـك لوفور عقله ومزيد ورعه ، فلا يرى أن يطرق نحوه طعن من المنكرين ولا أن يكتبهـا مع احتمال عدم الصحة خشية أن يكون قد دعا نفسه إلى قوم وليس منهم" (١)

وكلام المصنف رحمه الله ، يفهم أنها نسبة صحيحة وإن كان أبوه قد ترك كتابتها لنفسه ورعا . بل إن المصنف قد صرح بذلك فى ترجمته لوالده فذكـر أنه من عصابة الأنصار حيث يعرف فى الحسب التليد .

و قال : " ما ساد أحدنا وأه ولا كان ذا ستبصار . . ولا ساخ قدم فـتى قام بنصرته وقال أنصر بقية الأنصـار . . " (٢)

---

(١) انظر الطبقات ١٠ / ٩١ .
(٢) المرجع السابق ١٠ / ١٤٤ .

ثم ذكر فيه قول القاضي ابن فضل الله العمري من قصيدة يمدحه فيها :

قاضي القضاة بعلمه وضح الهدى .. وبجوده ووجوده فاضي الندى

نصر النبي محمدا بجدالـه .. وجدوده نصروا النبي محمدا (١)

وعلى كل حال فلو كانت النسبة أنهم أشراف لكان للشك فيها وجه قوى لأن من يدعي النسبة إلى آل البيت لا يكادون يحصون عدا . لكن الاكتفاء بالنسبة إلى الأنصار دون آل البيت يجعلها أقرب إلى الصدق (٢)

---

(١) المرجع السابق ١٠/١٤٥ .

(٢) ومهما يكن من أمر :

فلو لم تكوني بنت أكرم والد .. لكان أباك الضخم كونك لي أما

المبحث الثالث

نشأته وطلبه للعلم

نشأ التاج السبكي رحمه الله في بيت علم وفضل وديانة ونباهة وسعد كبير، فأبوه قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبحسبك هذا تنبيها على نباهة بيته وشرف منصبه .

لذلك فقد هيأ الله تعالى له أسباب التحصيل على يد والده الشيخ الامام منذ أن بدأ يعرف يمينه من يساره، فعب من العلوم ونهل في بداية حياته وشب عن الطوق واستوى على ساقه وهو في هذا الجو العلمي المبارك، وكان لتوجيه والده له توجيها علميا صادقا أثر كبير في نبوغه وتفوقه . . فقد غرس فيه حب الجد والاجتهاد، والمحافظة على الوقت والتعود على السهر في مذاكرة العلم[1] ووضعه نصب عينيه في كل شئونه .

واستمع إليه يقول عن والده :

" وكان الشيخ الامام رحمه الله ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل ويقول لي يابني تعود على السهر ولو أنك تلعب والويل كل الويل لمن رأه نائما وقد انتصف الليل . . "[2]

هكذا كان يقوم على تربيته رحمه الله خير قيام بعناية وحدب شديدين، ويسدي له خالص نصائحه[3] فتعود رحمه الله على استثمار الوقت

---

(١) وينشأ ناشيء الفتيان فينا . . على ما كان عوده أبوه

(٢) انظر الطبقات ١٠/١٧٧، ١٠/٢٠٣.

(٣) ومن ذلك قوله :

أبني لا تهمل نصيحتي التي . . أوصيك واسمع من مقالي ترشد
احفظ كتاب الله والسنن التي . . صحت وفقها لشافعي محمد
واعلم أصول الفقه علما محكما . . يهديك للبحث الصحيح الأيد

فى الدأب والتحصيل وأن لا يأخذ من النوم إلا ما كان من قبيل الضرورة .

على هذا الصنع البهى صنعه والده الشيخ الامام، وقد كان هو أستاذه الأول وشيخه المقدم، وبه تخرج فى كافة العلوم التى حصلها فورث عنه العلم والعمل، والعزة والنبل، والخلق الرفيع ، وكان والده فى زمنه ممن تشد إليه الرحال لطلب العلم، وقد رباه فى حجره لا يكاد يفارقه، وفوق ذلك كان يرسله إلى العديد من شيوخ العصر، وجهابذته، يختلف إليهم بكرة وعشيا كأمثال الحافظ المزى و الذهبى وابن النقيب وغيرهم (١) .

ولنصغ إليه يتحدث عن نفسه ويصف تردده على شيوخه رحمه الله حيث يقول :" وقد كنت كثير الملازمة لشيخنا الذهبى أمضى إليه فى كل يوم مرتين بكرة والعصر، وكنت أختلف إلى المزى مرتين فى الأسبوع" .

ثم يذكر سبب تردده على الذهبى أكثر فيقول :" وسبب ذلك أن الذهبي كان كثير الملاطفة لى، والمحبة فى، بحيث يعرف من عرف حالى معه أنه لم يكن يحب أحدا كمحبته فى ، وكنت أنا شابا فيقع ذلك منى موقعا عظيما .

= وتعلم النحو الذى يدنى الفتى . . من كل فهم فى القرآن مسدد
واسلك سبيل الشافعى ومالك . . وأبى حنيفة فى العلوم وأحمد
وخذ العلوم بهمة وتفطن . . وقريحة سمحاء ذات توقد
واستنبط المكنون من أسرارها . . وابحث عن المعنى الأسد الأرشد
واتبع طريق المصطفى فى كل ما . . يأتى به من كل أمر تسعد
واقصد بعلمك وجه ربك خالصا . . تظفر بسبل الصالحين وتهتدى
إلى آخر القصيدة - انظر الطبقات ١٠ / ١٧٧ .

(١) هؤلاء بعض مشايخه الذين تلقى عليهم بالشام وكان فى مصر قد تلقى على كوكبة من كبار علمائها ذكر ابن حجر فى الدرر ٢ / ٤٢٥ أنه أجاز له ابن الشحنة ويونس الدبوسى ، وأسمع على عبد المحسن الصابونى وابن سيد الناس وصالح بن المختار وعبد القادر بن المملوك وغيرهم من علماء مصر والقاهرة قبل أن يرحل مع والده إلى الشام سنة ٧٣٩ هـ
انظر البدر الطالع ١ / ٤١٠ .

وأما المزى فكان رجلا عبوسا مهيبا، وكان الوالد يحب لو كان أمرى - بالعكس، أعنى يحب أن ألازم المزى أكثر من ملازمة الذهبى، لعظمة المزى عنده وكنت إذا جئت غالبا من عند شيخ يقول: هات ما استفدت، ماقرأت ، ما سمعت ، فأحكى له مجلسى معه ، فكنت إذا جئت من عند الذهبى يقول جئت من عند شيخك ، وإذا جئت من عند الشيخ نجم الدين القحفازى يقول جئت من جامع تنكز ، لأن الشيخ نجم الدين كان يشغلنا فيه ، وإذا جئت من عند الشيخ شمس الدين ابن النقيب يقول جئت من الشامية، لأنى كنت أقرأ عليه فيها . وإذا جئت من عند أبى العباس الأندرشى، يقول جئت من الجامع لأنى كنت أقرأ عليه فيه وهكذا .

وأما إذا جئت من عند المزى فيقول جئت من عند الشيخ ويفصح بلفظ الشيخ ويرفع بها صوته ، وأنا جازم بأنه إنما كان يفعل ذلك ليثبت فى قلبى عظمته ويحثنى على ملازمته . . . " .

ثم قال : "وشغر مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلنى فيه فعجبت من ذلك فإنه كان لا يرى تنزيل أولاده فى المدارس.

وها أنا لم أل فى عمرى فقاهة فى غير دار الحديث ، ولا إعادة[1] إلا عند الشيخ الوالد وإنما كان يؤخرنا إلى وقت استحقاق التدريس على هذا ربانا رحمه الله، فسألته فقال ليقال إنك كنت فقيها عند المزى .

قال التاج : ولما بلغ المزى ذلك أمرهم أن يكتبوا اسمى فى الطبقة العليا ،

---

(١) المعيد هو الذى يعيد الدرس بعد إلقاء الشيخ له على الطلبة فكأنه معين للشيخ على تفهيم الدرس للطلبة وتثبيته فى أذهانهم ومعين للطلبة أيضا فى إعادة المحفوظات والمراجعة فى المذاكرات فهو دون الشيخ وأعظم درجة من عامة الطلبة .
انظر معيد النعم ص ١٠٨ .

فبلغ ذلك الوالد فانزعج وقال : خرجنا من الجد إلى اللعب، لا والله عبد الوهاب شاب ، ولا يستحق الآن هذه الطبقة، اكتبوا اسمه مع المبتدئين فقال له شيخنا الذهبي، هو والله فوق هذه الدرجة " وهو محدث جيد " ، هذه عبارة الذهبي فضحك الوالد وقال : يكون إذا مع المتوسطين . . "(١) .

هكذا رحمه الله بدأ سطوع نجمه في حياة والده فنضج قبل أوانه وبرز على أقرانه ، فمهر في الفقه والأصول والحديث والتاريخ والأدب والعربية وغيرها ، وهو في ريعان شبابه، وكان ذا بديهة نادرة وقريحة متوقدة ، شبيها بأبيه في العلم والنجابة(٢) ، ولو مد الله في حياته لبلغ مبلغ أبيه وزاد في شتى فنون العلم والمعرفة، ولكنه رحمه الله رغم قصر عمره قد صار نجيبا مرموقا يشار إليه بالبنان، وقد بارك الله له في عمره فأخرج للناس العديد من التصانيف البديعة النافعة ، قرئت عليه وانتشرت في حياته وبعد موته .

---

(١) انظر الطبقات ١٠ / ٣٩٩ .

(٢) قليلا مايكون أولاد العلماء كآبائهم في النجابة والتحصيل وذلك لأن العلماء في الغالب الأعم يكونون مشغولين بعلمهم وتكميل أنفسهم ، فلا يتفرغون لتكميل أولادهم ، فمن كان من أولادهم فيه فطنة وذكاء ورزق توفيقا من الله تعالى يجعله يقبل بقلبه على والده فإنه يحصل له الخير الكثير، ويكون ذلك أسهل عليه وأيسر ، لأنه بين يدي والده صباحا ومساء ، وفي حجره ومعه حال يقظته ونومه، وهو يود له الخير أكثر من نفسه، فحرى به أن ينال من العلم مالم ينله غيره، ممن ليس كذلك، وقد كان التاج السبكي رحمه الله من هؤلاء القلائل، وكان مع والده بهذه المثابة من أمره، فلا غرو أن يبلغ في العلم شأوا يتقاصر عنه غيره .

المبحث الرابع

عقيدته

من المعلوم استفاضة أن العقيدة الأشعرية هى التى كانت تسيطر على أغلب سواد الأمة فى زمان التاج السبكى .

وقد كان المصنف رحمه الله أحد أقطابها فهو أشعرى جَلْد فى أشعريته لا يهادن فيها ، ومن يقرأ كتابه الطبقات يجد من ذلك عجبا عجابا ، والمعروف أن أكبر المعارك المحتدمة بين الأشاعرة وعلماء السلف ، إنما كانت حول قضايا صفات البارى سبحانه وتعالى ، فالأشاعرة لهم فى ذلك طريقان ، طريق التأويل ، وطريق التفويض ، مع اعتقاد التنزيه ، كما قال قائلهم :

وكل نص أوهم التشبيها .. أوله أو فوض ورم تنزيها

فيما عدا سبع صفات تقريبا يذكرونها فى كتبهم ويحكون إثباتها باعتبارها صفات ذات ، عددها صاحب الزبد فى قوله :

حي مريد قادر علام .. له البقاء والسمع والكلام

وقال آخر :

حي عليم قدير والكلام له .. فرد سميع بصير ما أراد جرى (١)

وعلماء السلف لا يرتضون كلا الطريقين ، بل يثبتون لله تعالى كل صفة جاءت فى الكتاب أو السنه إثباتا حقيقيا ، ويعتقدون معانيها كما وردت بها لغة العرب ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .. كما قال تعالى : " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " (٢) .

وهذا هو الصواب وهو الذى درجت عليه القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، قرنا بعد قرن ، إلى أن جاءت عصور التأويل المتأخرة .

---

(١) انظر الطبقات ١٠ / ٣٤٣ .
(٢) الشورى آية (١١) .

ولكن مما يهون الخطب أن هذا الاختلاف إنما هو اختلاف فى الطريق المؤدى إلى التنزيه لا فى حقيقة التنزيه ، فإن الكل مجمعون على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الأكفاء والأمثال ،لذلكفقد قرر الشاطبى رحمه الله فى كتابه الموافقات أن هذا الاختلاف إنما هو من قبيل الاختلاف فى الفروع[1] ولا يعد اختلافا فى الأصول ،إذ الأصل وهو التنزيه مجمع عليه .

---

(١) راجع الموافقات ٣ / ٩٧ .

المبحث الخامس

شيوخه

حظي التاج السبكي رحمه الله في مسيرته التعليمية بشيوخ أجلاء، فتتلمذ على أكابر علماء عصره ممن كان لهم دوى هائل في الحياة العلمية أنذاك فعب من معينهم، وتأثر بأخلاقهم، واقتدى بهم في العلم و العمل، وكان أكثرهم تعليما له وتأثيرا في شخصيته والده الشيخ تقي الدين السبكي، العالم الجهبذ، الذي كان يشار إليه بالبنان في ذلك العصر، فقد تربى في حجره ولازمه ملازمة ظله منذ نشأته، وإلى أن قضى نحبه رحمه الله ، كما أخذ الكثير عن غيره من كبار شيوخ عصره ، كأبي حيان ، وابن النقيب، وابن سيد الناس، وزينب بنت الكمال ، وآخرين وسنكتفي هنا بترجمة أربعة من أبرز شيوخه ، وهم المزي، والذهبي، وأبو حيان ، ووالده الشيخ الامام .

ثم نضيف إليهم أحد أقرانه وهو الشيخ صلاح الدين الصفدي لما كان بينهما من خصوصية فقد ذكر أنه صحبه منذ الصغر، وبه رغب في الأدب، وأخذ كل منهما عن الآخر ، فنكتفي بترجمة هؤلاء عن غيرهم، وإلا ففي شيوخه كثرة لا مجال للاطالة بذكرهم هنا، لأن المقصود الاشارة إلى ماحباه الله به من التلقي على كواكب مشرقة من شيوخ العلم، الذين لم يجيء لهم بعدهم نظير. .

(١) شيخه أبو الحجاج المزي

هو الشيخ جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن علي الحافظ أبو الحجاج المزي ، قال التاج : " شيخنا وأستاذنا وقدوتنا حافظ الزمان ، حامل راية السنة والجماعة، والقائم بأعباء هذه الصناعة ، إمام الحفاظ ، كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يؤدونها، واحد عصره بالاجماع

وشيخ زمانه الذى تصغى لما يقول الأسماع" (١) .

وقال ابن حجر: طلب الحديث بنفسه وسمع الكتب الطوال كالستة والمسند والمعجم الكبير وتاريخ الخطيب والسنن الكبير وغيرها .

أخذ عن محي الدين النووى وغيره، وسمع بالشام، والحرمين، و مصر، وغيرها، وبلغت مشيخته نحو ألف شيخ ، وكان فقير الحال ، أول ما حصل من الوظائف الناصرية، ثم دار الحديث الأشرفية ، قال ابن تيمية لما باشرها المزى: لم يلها من حين بنيت أحق بشرط الواقف منه ، لقول الواقف فيها :" فان اجتمع من فيه الرواية، ومن فيه الدراية، قدم من فيه الرواية"(٢) ، وقد سمع منه ابن تيمية والذهبى والبرزالي، والتقى السبكى، وخلق لا يحصون ، وقال الذهبى : كان خاتمة الحفاظ وناقد الأساتيد والألفاظ، وهو صاحب معضلاتنا وموضح مشكلاتنا ، حفظ القرآن فى صباه وتفقه للشافعى، وعنى باللغة فبرع فيها جدا ولو كان لى رأى للازمته أضعاف ما جالسته فإننى أخذت عنه هذا الشأن، بحسبى لا بحسبه، وكان لا يكاد يعرف قدره إلا من أكثر مجالسته ، وكان خيرًا ذا ديانة وتصون وسلامة باطن وعدم دهاء . . ."

وذكر التاج أنه لم ترعيناه أحفظ من أبي الحجاج المزى، وأبى عبد الله الذهبى ، والشيخ الامام والده ، رحمهم الله : قال :" وغالب ظني أن المزى يفوقهما فى أسماء رجال الكتب الستة ، والذهبى يفوقهما فى أسماء رجال من بعد الستة والتواريخ والوفيات ، والوالد يفوقهما فى العلل ، والمتون والجرح

---

(١) قال التاج : وكان الوالد كثير التعظيم له جدا، حتى إنه شغر مرة مكان بدار الحديث الأشرفية فنزلنى فيه رغم صغر سنى فعجبت من ذلك وسألته فقال ليقال إنك كنت فقيها عند المزى - راجع الطبقات ١٠ / ٣٩٩ .

(٢) انظر الدرر الكامنه ٤ / ٤٥٧ ومابعدها، شذرات الذهب ٦ / ١٣٦، الطبقات ١٠ / ٢٢٠ .

والتعديل، مع مشاركة كل منهم لصاحبيه، فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة، ثم قال: وبالجملة كان شيخنا المزى أعجوبة زمانه، وكان قد انتهت إليه رئاسة المحدثين فى الدنيا، صنف "تهذيب الكمال" المجمع على أنه لم يصنف مثله، وكتاب الأطراف، وغيرهما من نفائس المصنفات، وقد قرأت عليه وسمعت عليه الكثير، وغالب المحدثين من دمشق وغيرها قد تتلمذوا له، واستفادوا منه، توفى رحمه الله سنة ٧٤٢هـ بدار الحديث الأشرفية.

(٢) شيخه الذهبى

قال التاج: "شيخنا وأستاذنا الامام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي، محدث العصر [1]، إمام الوجود حفظا، وذهب العصر معنى ولفظا، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال فى كل سبيل، كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها. كان مخطط الرحال، ومنتهى الرغبات، وهو الذى خرجنا فى هذه الصناعة، وأدخلنا فى عداد الجماعة، جزاه الله عنا أفضل الجزاء وجعل حظه من غرفات الجنات موفورة الأجزاء . ."

كان مولده سنة ٦٧٣هـ طلب الحديث وله ثماني عشرة سنة، وأجاز له جماعة، وسمع بمصر والشام من جهابذة الشيوخ، فجمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وما زال يخدم هذا الفن إلى أن رسخت فيه قدمه، وتعب الليل والنهار وماتعب لسانه ولا قلمه، وضربت باسمه الأمثال وسار اسمه مسير الشمس، وأقام بدمشق يرحل إليه من سائر البلاد، وتناديه السوءالات من كل ناد . ." [2]

---

(١) قال التاج: اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص، المزى والبرزالي، والذهبى، والشيخ الامام الوالد لا خامس لهم ولا فى عصرهم .." انظر الطبقات ٩ / ١٠٠ وما بعدها.

(٢) طبقات ٩ / ١٠٠ ومابعدها.

وقال الصفدى فى ترجمته: إنه حافظ لا يجارى، ولا فظ لا يبارى، أتقن الحديث ورجاله ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس وأزال الابهام فى تواريخهم والالباس، اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيرا من تصانيفه.

ولم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنة النقلة، بل هو فقيه النفس، له دُربة بأقوال الناس، ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات، وأعجبنى منه مايعانيه فى تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثا يورده، حتى يبين مافيه من ضعف متن، أو ظلام إسناد، أو طعن فى رواته، وهذا لم أره لغيره . . "

ثم قال وأنشدنى لنفسه قوله :

العلم قال الله قال رسوله . . إن صح والإجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف جهالة . . بين الرسول وبين رأى فقيه (١)

وله رحمه الله التصانيف الشهيرة السائرة : منها التاريخ الكبير والأوسط" العبر" والصغير(دول الاسلام) وسير أعلام النبلاء ، ومختصر تهذيب الكمال للمزى، والميزان فى الضعفاء ، ومختصر سنن البيهقى ، وطبقات الحفاظ، و طبقات القراء والمعجم الكبير، والصغير، والمختص لمحدثى العصر، وغيرها كثير.

توفي رحمه الله ليلة الاثنين ثالث ذى القعدة سنة ٧٤٨هـ : قال التاج: ورآه الوالد رحمه الله قبل المغرب وهو فى السياق وقال له كيف تجدك ؟ فقال فى السياق ، ثم سأله أدخل وقت المغرب؟ فقال له الوالد ألم تصل العصر؟ فقال بلى ولكن لم أصل المغرب إلى الآن ، وسأله عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديما فأفتاه بذلك ففعله. ومات بعد العشاء قبل نصف الليل وحضرت الصلاة عليه ودفنه ، ثم قال وقد كنت لما توفى شيخنا رثيته بقصيدة مطلعها :

---

(١) راجع الوافى بالوفيات ٢ / ١٦٣ ، وانظر كذلك شذرات الذهب ٦ / ١٥٣، البدر الطالع ٢ / ١١١ .

من للحديث وللسارين في الطلب .. من بعد موت الامام الحافظ الذهبي
من للرواية للأخبار ينشرها .. بين البرية من عجم ومن عرب
من للدراية والآثار يحفظها .. بالنقد من وضع أهل الغي والكذب
من للصناعة يدري حل معضلها .. حتى يريك جلاء الشك والريب

..... إلى أن يقول :

بالله يا نفس كوني لي مساعدة .. وحاذري جزع الأوصاب والرعب
فهذه الدار دار لا ذمام لها .. ليست بنبع إذا عدت ولا غرب (١)
وليس تبقى على حال وليس لها .. عهد يمسك بالأوتاد والطنب
بينا يرى المرء في بحر المعزة ذا .. خوض ترامت عليه ذلة النوب
هذي المنية لا تنفك آخذة .. ما بين محتقر فينا وذي نسب
هي السهام نصبنا نحوها غرضا .. تصمي وتسلب كالعسالة السلب
وهو الحمام فلا تعجب عليه ولا .. تعجب لديه فما في الموت من عجب
وإن تغب ذات شمس الدين لا عجب .. فأي شمس رأيناها ولم تغب
هو الإمام الذي روت روايته .. وطبق الأرض من طلابه النجب
ثبت صدوق، خبير حافظ يقظ .. في النقل أصدق انباء من الكتب
الله اكبر ما أحرى وأحفظه .. من زاهد ورع في الله مرتقب

إلى آخر القصيدة وهي طويلة ولم يذكر في الطبقات إلا بعضها (٢)

---

(١) عجز هذا البيت من شعر أبي تمام في فتح عمورية حيث قال مكذبا للمنجمين الذين حكموا بأن المعتصم لن يفتحها :

أين الرواية أم أين النجوم وما .. صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة .. ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

انظر ديوانه ١ / ٤٢ : والنبع والغرب ضربان من الشجر النبع من جيده والغرب من رديئه ، يقول هذه الأحاديث ليست بقوية ولا ضعيفة بل هي لا شيء كالعدم.

(٢) انظر ذلك ٩ / ١٠٩

(٣) شيخه أبو حيـــان

هو : أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي أبوحيان الأندلسي كان مولده سنة ٦٥٤هـ .

قال ابن حجر : سمع الكثير ببلاد الأندلس وأفريقية ثم قدم مصر سنة ٦٨٠هـ فسمع الكثير وانتقى على الأشياخ وخرج وشغل الناس بالنحو والقراءات ولازم الشيخ ابن النحاس فسمع عليه كثيرا من كتب الأدب[1] .

قال الصفدي :" كان له إقبال على أذكياء الطلبة يعظمهم وينوه بقدرهم ، وكان كثير النظم من الأشعار والموشحات ، وكان ثبتا فيما ينقله عارفا باللغة ، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما ، خدم هذا الفن أكثر عمره ، حتى صار لا يذكر أحد في الأقطار فيهما غيره ، وله اليد الطولى في التفسير والحديث ، وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم ، وله التصانيف التي سارت في الآفاق واشتهرت في حياته ، وأقرأ الناس قديما وحديثا ، وصارت تلامذته أئمة وأشياخاً في حياته . وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك ورغبهم فيها ، وشرح لهم غامضها ، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقهاء ، وألزم أحدا أن لا يقرئ أحدا إلا في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في مصنفاته "[2] .

وقال التاج :" كان عذبا منهلا تضرب إليه الابل أباطها ، سمع عليه الجم الغفير ، وأخذ عنه غالب مشيختنا وأقراننا منهم الشيخ الإمام الوالد وناهيك بها منقبة لأبي حيان ، وكان يعظمه كثيرا ، قال : ولما توجهنا من دمشق إلى القاهرة سنة ٧٤٢هـ وأمرنا السلطان بالعود إلى الشام لانقضاء

---

(١) انظر الدرر الكامنة ٤ / ٣٠٢ .

(٢) راجع وفات الوفيات ٥ / ٢٦٧ .

ماكنا ، توجهنا لأجله استمهله الوالد أياما لأجلى فمكث حتى أكملت على أبى حيان ماكنت أقرؤه عليه، وقال لى يابنى هو غنيمة ولعلك لا تجده من سفرة أخرى، وكان كذلك ، وكان الشيخ أبو حيان إماما مبجلا اتفق أهل العصر على تقديمه وإمامته، ونشأت أولاده هم على حفظ مختصراته، وأباؤهم على النظر فى مبسوطاته ، وضربت باسمه الأمثال، مع صدق اللهجة وكثرة الاتقان والتحرى ، وصنف التصانيف السائرة، منها البحر المحيط فى التفسير، وشرح التسهيل، والارتشاف، وتجريد أحكام سيبويه، وغير ذلك(١) .

وذكر ابن حجر أنه كان بخيلا يفتخر بالبخل كما يفتخر الناس بالكرم ويقول أوصيك احفظ دراهمك ودع يقال بخيل، ولا تحتاج إلى الأراذل (٢)

وقال عنه الذهبى فى المعجم المختصر: " أبو حيان ذو فنون حجة العرب وعالم الديار المصرية، له عمل جيد فى هذا الشأن وكثرة طلب "

وذكر الاسنوى أنه كان إمام زمانه في علم النحو واللغة وكان شاعرا مجيدا ومن شعره قوله :

إن الدراهم والنساء كلاهما . . لا تأمنن عليهما إنسانا
ينزعن ذا اللب المتين عن التقى . . فيرى إساءة فعله إحسانا (٣)

وقال التاج أنشدنا لنفسه بقرائتى عليه قوله :

يظن الغمر أن الكتب تجدى . . أخا ذهن لإدراك العلوم
ومايدرى الجهول بأن فيها . . غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ . . ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى . . تصير أضل من توما الحكيم (٤)

توفى رحمه الله سنة ٧٤٥هـ .

---

(١) راجع الطبقات ٩/٢٧٦ . (٢) الدرر ٤/٣٠٣ .
(٣) انظر الدرر الكامنه ٤/٣٠٢ ، ٤/٣٠٢
(٤) راجع الطبقات ٩/٢٧٧ .

(٤) والـده الشيخ الامام السبكى

هو أبو الحسن على بن عبد الكافى بن على بن تمام الشيخ الامام الفقيه المحدث الحافظ ، المفسر المقرىء الأصولى ، اللغوى الأديب ، الحكيم النظـــار ، شيخ الاسلام تقى الدين السبكى .

قال ابن حجر " ولد بسبك العبيد فى صفر سنة ٦٨٣ هـ وتفقه علـــى والده ، ودخل القاهرة واشتغل على ابن الرفعة وأخذ الأصلين عن الباجـــى ، والنحو عن أبى حيان ، والتفسير عن العلم العراقى ، والقراءات عن التقى الصائـــغ والحديث عن الدمياطى ، ثم طلبه بنفسه ورحل فيه إلى الشام والحجاز فأخـــذ عن خلق يجمعهم معجمه الذى خرجه له أبو الحسن ابن أيبك الدمياطى ، ولـــي بالقاهرة تدريس المنصورية ، والكهارية ، وجامع الحاكم وغيرها وكان أكابر الدولـــة الناصرية يعظمونه ويقضون بشفاعته الأشغال . . " [1] . ولما توفى قاضى دمشق الجلال القزوينى طلبه السلطان الناصر فى جماعة ليختار منهم من يقرره مكانـــه فوقع الاختيار عليه ، فامتنع ، فراجعه الناصر مرارا وألح عليه حتى قبل : قال التاج : " طلبه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأراده على ولاية قضاء الشـــام بعد وفاة القزوينى فأبى فمازال السلطان إلى أن ألزمه بذلك بعد ممانعـــــة طويلة فى مجلس متماد ، يطول شرحه ، فقبل الولاية . . يالها من غلطة أف لها ، وورطة ليته صمم ولا فعلها " [2] وكان ذلك سنة ٧٣٩ هـ وباشر القضاء فـــى الشام بهمة وصرامة وعفة وديانة وكان ينشد لنفسه :

إن الولاية ليس فيها راحـــة . . إلا ثلاث يبتغيها العاقـــــل

حكم بحق أو إزالة باطـــل . . . أو نفع محتاج سواها باطـــــل [3]

ثم أضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموى . . فقال فى ذلك الحافظ الذهبى :

---

(١) انظر الدرر الكامنة ٣ / ٦٣ .

(٢) راجع الطبقات ١٠ / ١٦٨ .

(٣) طبقات ١٠ / ١٧٩ .

ليهن المنبر الأموى لمـــا .. علاه الحاكم البحر التقـــى
شيوخ العصر أحفظهم جميعا .. وأخطبهم وأقضاهم علـــى[1]

وولى التدريس بدار الحديث الأشرفية بعد وفاة المزى[2] وتدريس الشامية بعد موت ابن النقيب[3] .

قال ابن حجر :" وكان متقشفا فى أموره، متقللا فى حاجاته، لا يستكثر على أحد شيئا، ولما مات وجدوا عليه اثنين وثلاثين ألف درهم دينا، فالتزم ولداه تاج الدين وبهاء الدين بوفائها "[4] .

وذكره الذهبى فى المعجم المختص فقال عنه :" القاضى الامـــام، العلامة الفقية المحدث الحافظ، فخر العلماء، سمع من الدمياطى وطبقته وكـــان

---

(١) راجع الطبقات ١٠ / ١٦٩ .

(٢) قال التاج :"فالذى نراه أنه مادخلها أعلم منه ولا أحفظ من المـــزى ولا أورع من النووى وابن الصلاح .

(٣) قال تاج الدين" فما حل مفرقها أعلم منه، كلمة لا استثناء فيها، كذا يكون من يتولى المناصب وبمثل هذا تنال المراتب . ."انظر الطبقات ١٠/١٧٠

(٤) انظر الدرر الكامنة ٣ / ٦٣ : ومما يدل على قلة حاله، وزهده فى الدنيا قوله فى الفتاوى ١ / ١٢٥ :

من الناس من قد دبروا فتحصلوا .. على نعمة فى نسلهم هى باقيـــة
ومالى تدبير لنفســـى لا ولا .. لنسلى لكن نعمة الله كافيـــة
كما عالني دهرى كذاك يعول من .. أخلفه فى عيشة هى راضيـــة

والدهر هو الله كما ورد فى حديث مسلم ٧ / ٤٥" لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر"، قال رحمه الله : نظمتها فى سنة ٧٥٢ هـ بسبب أنى فكرت فى حالى وحال أولادى من بعدى ولي فى القضاء أربع عشرة سنة متمكنا من أن أحصل لهم مايبقى لهم من بعد موتى، وقد أقمت قبل ذلك بمصر نحوا من سبع عشرة سنة، متمكنا من أن أحصل لهم رواتب كبيرة، ولم أحصل لهم شيئا من ذلك، ونفسى تطلب الخير لأولادى فى حياتى وبعد مماتى، فتوكلت على الله و أحلتهم على فضله كما تفضل على .."

صادقا متثبتا،خيرا دينا متواضعا حسن السمت من أوعية العلم يدرى الفقه ويقرره ، وعلم الحديث ويحرره،والأصول ويقرئها،والعربية ويحققها ، صنف التصانيف المتقنة ،وقد بقى فى زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق ، والفضل : سمعت منه وسمع منى ،وحكم بالشام،و حمدت أحكامه .

فالله يؤيده ويسدده . . وذكر فى حقه أبياتا قالها فى مدحه،ذكرها التاج فى ترجمة الذهبى فقال (أنشدنا لنفسه و أرسلها معى إلى الوالد رحمه الله وهى فيما أراه آخر شعر قاله،لأن ذلك كان فى مرض موته قبل وفاته بيومين أو ثلاثة :

تقى الدين ياقاضى الممالك . . ومن نحن العبيد وأنت مالك

بلغت المجد فى دين ودنيا . . ونلت من العلوم مدى كمالك

ففى الأحكام أقضانا على . . وفي الخدام مع أنس بن مالك

وكابن معين فى حفظ ونقد . . وفى الفتيا كسفيان ومالك

وفخر الدين فى جدل وبحث . . وفى النحو المبرد وابن مالك

وتسكن عند رضوان قريبا . . كما زحزحت عن نيران مالك

تشفع فى أناس فى فراء . . لتكسوهم و لو من رأس مالك

قال التاج:وذكر بعد هذا أبياتا على هذا النمط تتعلق بمدحى،لم أذكرها و ختمها بقوله :

وللذهبى إدلال الموالى . . على المولى كحلمك واحتمالك(١)

وقد كتب له التاج رحمه الله ترجمة ضافية ،فى الطبقات بسطها كل البسط فأطال وأطاب،فى حوالى مائتى صفحة ، ذكر فيها دررا مشرقة من سجاياه ومناقبه وآثاره قل أن تجدها لنظيره فى كتب التراجم ومنها قوله :

" شيخ المسلمين فى زمانه والداعى إلى الله فى سره وإعلانه والمناضل

---

(١) انظر الطبقات ٩ / ١٠٦ ومابعدها .

عن الدين الحنيفي بقلمه ولسانه ، أستاذ الأستاذين ، وأوحد المجتهدين وخصم المناظرين، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، ثم أنشد :

وكان من العلوم بحيث يقضى .. له من كل علم بالجميع

وأضاف يقول : إنه تفرد في الأقاليم وصار المشار إليه بالعلوم كلها الملحوظ بعين التحقيق، من سنة ست عشرة التي مات فيها الشيخ صدر الدين ابن الوكيل قرينه، واستمر إلى وفاة الشيخين تقي الدين ابن تيمية، وكمال الدين ابن الزملكاني، فلما توفيا تفرد في العصر بأجمعه، قال : ولا أعلم غيره مكث سبعا وعشرين سنة لا يختلف أثنان في أنه أعلم أهل الارض على الاطلاق، في كل علم، فإنه مكث من سنة تسع وعشرين إلى أن مات سنة ست وخمسين وفيها مات عالم الأرض با لاجماع . . " (١) .

ثم أورد غرراً بديعة من أحواله واختياراته العلمية ومايربو على المائة من مصنفاته ، وختم تلك الترجمة الطويلة بقوله :" ولا يظنن الظان أنا أطلناها اعتقادا في الشيخ الإمام، أنه أعظم من عظماء أهل الطبقات الذين لم نطل في تراجمهم، كما أطلنا في ترجمته، أو أنا فعلنا ذلك تعصبا للوالد ، وإنما السبب أنا على أحوال الوالد أكثر منا اطلاعا على أحوال من سبق، ممن لم نخالطه ولم نعاشره ، ونحن على يقين بأن فيهم من هو أعلا مقاما من الشيخ الامام . . " .

---

(١) راجع الطبقات ١٠ / ١٦٧ ومابعدها ، وقد توفي ليلة الاثنين المسفرة عن ثالث جمادى الآخرة من سنة ٧٥٦ بظاهر القاهرة ودفن بباب النصر تغمده الله برحمته : قال التاج : والأطباء متفقون على أنه مسموم وحكى لي الأخ الشيخ الامام بهاء الدين أنه قبل وفاته بيومين أسر إلى بعض أصحابه " انى مسموم وأعرف من سمني ولا أذكره" وأنه أوصاه أن لا يعرف أولاده بشيء، لئلا يشوش عليهم فلم يذكر ذلك إلا بعد وفاته " ، انظر ذلك ١٠ / ٣١٦ ، قال ابن حجر وكان قد سعى ولده بهاء الدين أن يدفن عند الامام الشافعي فامتنع الأمير شيخون من من إجابته فدفنه بسعيد السعداء ، انظر الدرر ٣ / ٦٤ .

(٥) الصلاح الصفـــــدى

هو خليل بن أيبك بن عبد الله الشيخ أبو الصفاء صلاح الدين الصفدى ، قال التاج : الإمام الأديب ، الناظم الناثر ، أديب العصر" ، ولع بالأدب فطلبه بنفسه وبرع فيه ، وقال الشعر الحسن ثم أكثر جدا من النظم والنثر ، والترسل ، وأخذ عن ابن نباتة وابن سيد الناس وأبى حيان ، ونحوهم وسمع من المزى وجماعة وطاف مع الطلبة ، وكتب الطباق ثم أخذ فى التأليف ، فجمع تاريخه الكبير الـــذى سماه (الوافى بالوفيات) فى نحو ثلاثين مجلدة على حروف المعجم ، وله شـــرح لامية العجم ، وألحان السواجع ، وغير ذلك (١).

قال الذهبى فى حقه :" الأديب البارع الكاتب شارك فى الفنـــون ، وتقدم فى الإنشاء ، وجمع وصنف ، سمع منى وسمعت منه ، وله تواليف وكتب وبلاغة ."

قال التاج :" ولد سنة ٦٩٦هـ وصنف الكثير فى التاريخ والأدب . . قال لى : إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفا ، وكانت بينى وبينه صداقة منـــذ كنت صغيرا فإنه كان يتردد إلى والدى فصحبته ، ولم يزل مصاحبا لى إلـــى أن قضى نحبه ، وكانت له همة عالية فى التحصيل ، فما صنف كتابا إلا وسألنى فيـــه عما يحتاج إليه من فقه ، وحديث ، وأصول ، ونحو ، لا سيما كتابه (أعيان العصـــر) فأنا أشرت عليه بعمله ، ثم استعان بى فى أكثره ، ولما أخرجت مختصرى فـــى الأصلين المسمى (جمع الجوامع) كتبه بخطه وصار يحضر الحلقة وهو يقرأ علـيِ ويلذ له التقرير ، وسمعه كله علي وربما شارك فى فهم بعضه رحمه الله .

قال : وكان يكاتبنى وأكاتبه منذ الصغر وبه رغبت فى الأدب . . . . كتبت إليه مرة من القاهرة فى سنة ٧٦٣ هـ أقول :

لا تبكين ما فات سنـــــه . . ودع الرســوم المســـتبحنـــه

---

(١) انظر ترجمة فى الدرر الكامنه ٢ / ٨٧ ، البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٣ ، البدر الطالع ١ / ٢٤٣ .

بكر العواذل فى القـــــرا .. م يلمننى وألومهنـــــــه

ويقلن شَـيب قد عـــــلا .. ك وقد كبرت فقلـت إنـــه

إلى قوله يخاطبه :

واذكر صفـاء أبى الصفـاء .. والخطب معتكرالد جنـــة

السيد اليقظ الأغـــــز .. أخي الوفاء بدون منـــــة

متدرع ثوب التقـــــى .. حصنا وتقوى الله جنـــة

متفنن بحـــــــر إذا .. جاريته لم تدر فنـــــه

يا أيها الحـــبر الـــذى .. جعل الاله الخـير ضمنـه

دم وابق مابقى الزمـــا .. ن فإن وهى زلزلت وهنـــه

ولقدرك العالي العلـــو .. فما النجوم علا يطلنـــه

إلى أخرالرسالة نظما ونثراً فى أدب سلس أسلس قيادا من الغمـــام بأيدى الرياح .. فأجابه الصفدى يقول :

وافى قريضك لى كأنـــه .. صبح وقد شق الدجنـــة

فاللحن منه مطـــــرب .. مع أنه مافيه لحنـــــة (١)

إلى آخر الجواب على صفة صنيع المصنف نظما ونثرا .. وكانت وفاة الشيـــخ الصفدى فى شوال سنة ٧٦٤هـ بدمشق .. ومن شعره رحمه الله قوله :

الجد فى الجد والحرمان بالكسل .. فانصب تصب عن قريب غاية الأمل

واصبر على كل مايأتى الزمان بـه .. صبر الحسام بكف الدارع البطل

وجانب الحرص والأطماع تحظ بمـا .. ترجو من العز والتأييد فى عجل

ولا تكونن على مافات ذا حـــزن .. ولا تظل بما أوتيت ذا جـــذل

واستشعر الحلم فى كل الأمور ولا .. تسرع بمبادرة يوما إلى رجـــل

وإن بليت بخصم لا خلاق لـــه .. فكن كأنك لم تسمع ولم يقـــل

---

(١) راجع الطبقات ٩ / ٥-٣٢ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٠٠ ، فهرس الفهارس ٢ / ١١٤ .

ولا تمار سفيها فى محـــــاورة .. ولا حليما لكي تنجو من الزلـــل

ولا يغرنك من يبدى بشاشتـــه .. إليك خِدعا فإن السم فى العسـل

وإن أردت نجاحا أو بلوغ مـنى .. فاكتم أمورك عن حاف ومنتعـــل

لا تأمن الدهر أن يعلى العدو ولا .. تستأمن الدهر أن يلقيك فى السفل

أحق شيء يرد ما تخالفـــه ... شهادة العقل فاحكم صنعة الجدل

وقيمة المرء ما قد كان يحسنـــه .. فاطلب لنفسك ما تعلو به وســـل

أطلب تنل لذة الادراك ملتمسا .. أو راحة اليأس لا تركن إلى الوكـل

فكل داء دواه ممكن أبـــد .. إلا إذا امتزج الاقتار بالكســـل

المبحث السادس

في تلاميذه

مما لا شك فيه أنه قد تتلمذ على ابن السبكى عدد وافر من العلماء ، الذين كان لهم تأثير كبير فى مجتمعاتهم واسهامات جليلة فى العلوم الإسلامية وذلك نظرا لما اشتهر به التاج السبكى، من الصيت الذائع والعلم الغزير ، والتدريس المتواصل، فى معظم مدارس الشام آنذاك .

قال رحمه الله": وأما دمشق فما فيها مدرسة مرموقة بعين التعظيم إلا وقد وليت تدريسها بحمد الله إلا اليسير من المدارس" . (١)

ولكن كتب التاريخ لا يكثر فيها ذكر هؤلاء التلاميذ بالنسبة للتاج السبكى، كما هو الحال بالنسبة لغيره .

ولعل مرد ذلك إلى أن انشغاله بالقضاء، والوظائف الرسمية كان يحول بينه وبين مقابلة الطلاب فى بيته فأقتصر لقاؤه بهم فى ساحات المدارس الرسمية والجوامع العلمية فى حلقات مفتوحة تضم العدد الكبير من المتعلمين ، والمستمعين فلم يرد المؤرخون عدّ هؤلاء الجموع المتكاثرة من تلاميذه ، ولكننا بمراجعة مصادر التراجم العديدة وجدنا له كثيرا ممن أخذ عنه ولازمه وأفاد منه ، ومن أبرز هؤلاء :-

١) الامام ابن الجزرى :

فقد أخذ عنه فى الفقه والحديث والقراءات وغير ذلك وذكر تلمذته للتاج السبكى شيخ الاسلام فى غاية الوصول (٢) ، والشوكانى فى البدر الطالع

---

(١) انظر الاشباه والنظائر ورقه ٢١٧ .
(٢) انظر ذلك ص ٣٥ .

ثم ترجمه فقال" هو محمد بن محمد بن علي بن يوسف العمري الدمشقي الشافعي ، المعروف بابن الجزري، شمس الدين أبو الخير ولد في رمضان سنة ٧٥١هـ ، بدمشق فنشأ بها وأخذ القراءات عن جماعة ثم رحل إلى القاهرة فسمع من جماعة وجهد في طلب الحديث بنفسه، وكتب الطباق وتفقه على الاسنوي واشتد شغفه بالقراءات حتى جمع العشر، ثم الثلاث عشرة وتصدى للاقراء بالجامع الأموي، وله تصانيف كثيره نافعة منها النشر في القراءات العشر، والتمهيد في التجويد، وطبقات القراء ، وغيرها كثير ، وقد تفرد بعلم القراءات في جميع الدنيا ، ونشره في كثير من البلاد، وكان أعظم فنونه وأجل ماعنده ، توفي رحمه الله سنة ٨٣٣هـ" (١) قال ابن حجر : وقد انتهت إليه رئاسة علم القراءات في الممالك الاسلامية .

٢) الشيرازي :

قال المصنف عند ذكره لقصيدته النونيه التي عملها في العقائد قال :" وقد ولع كثير من الناس بحفظها لاسيما الحنفية وشرحها من أصحابي الشيخ الامام العلامة نور الدين محمد بن أبي الطيب الشيرازي الشافعي حين ورد علينا دمشق في سنة ٧٥٧هـ وأقام يلازم حلقتي نحو عام ونصف عام : قال ولم أر فيمن جاء من العجم في هذا الزمان أفضل منه ولا أدين" (٢)

٣) الحموي :

شهاب الدين أحمد بن عمر بن أبي الرضى الحموي نزيل حلب .

قال ابن حجر : تفقه على التاج السبكي وغيره ومهر وتقدم وكان فاضلا

---

(١) انظر ترجمة في البدر الطالع ٢ / ٢٥٧ ، معجم المؤلفين ١١ / ٢٩١ ، شذرات الذهب ٧ / ٢٠٤ ، الدارس ١ / ٨ ، وقد ذكر ابن الجزري قراءته على ابن السبكي في كتابه النشر ١ / ٤٥ .

(٢) انظر الطبقات ٣ / ٣٧٩ .

عالما كثير الاستحضار، عارفا بالقراءات له نظم حسن ، وكانت دروسه حافلة ، والثنا عليه وافر ، وكان من رجال العالم بجدة وهمة وكان يقوم بأمر الشرع ويشتد في إنكار المنكرات ، توفي رحمه الله سنة ٧٩١ هـ.(١)

٤) اللخمي :

شمس الدين محمد بن موسى بن محمد بن سند اللخمي الدمشقي المحدث ولد سنة ٧٢٩هـ .

قال ابن حجر : كان شديد اللزوم للتاج السبكي، وقارئا لتصانيفه في دروسه، وناب عنه في مشيخة دار الحديث الأشرفية وغيرها (٢)

وعني بالحديث ، فسمع من جماعة، وصنف وخرج وكتب العالي والنازل وكان حسن القراءة مفرط الذكاء ، وهو القائل :

الحافظ الفرد إن أحببت رويته .. فانظر إلي تجدني ذاك منفردا

كفى لهذا دليل أنني رجل .. لولاي أضحى الورى لم يعرفوا سندا

ثم ذكر أنه اختلط قبل موته بسنة بسبب مرض طال به، وكان عالما له يد في النحو والحديث كيسا، متواضعا، توفي رحمه الله سنة ٧٩٢هـ(٣)

٥) السلمي :

الحافظ أبو المعالي نصر الدين محمد بن علي بن عبد الواحد السلمي المولود سنة ٧٤٢ هـ

قال ابن حجر : قرأ الأصول على تاج الدين السبكي وطارحه في

---

(١) انظر الدرر الكامنه ١/ ٢٢٧ .

(٢) وذكر السيوطي أنه أخذ عن التاج السبكي ولازمه وولاه عدة وظائف ، انظر طبقات الحفاظ ص ٥٣٧ .

(٣) انظر تاريخ ابن حجر ٣/ ٥١ ، حسن المحاضرة ١/ ٣٦ ، شذرات الذهب ٦/ ٣٢٦ .

أبيات، فأجابه ومدحه، وكان بليغا مفوها، جيد الضبط والشعر، سريع الحفظ جدا.

وقال السيوطى إنه أخذ عن التاج السبكى وغيره، واعتنى بالحديث[1] فسمع من جماعة وكان فاضلا عالما مشاركا فى العلوم- توفى رحمه الله سنة ٧٨٩هـ .

وذكر السخاوى فى ترجمة عمران بن إدريس الكنانى الدمشقى المقرىء المولود سنة ٧٣٤هـ والمتوفى سنة ٨٠٣هـ أنه لازم التاج السبكي فى الفقه وغيره وكان من بقايا الشيوخ .[2] .

هؤلاء بعض تلامذته رحمه الله وغيرهم كثير . .

---

(١) انظر تاريخ ابن حجر ٤ / ٨٥ ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٤٠ .

(٢) انظر الضوء اللامع ٦ / ٦٣ ، وراجع تاريخ ابن حجر ٤ / ٣٠٦

المبحث السابع

ثناء العلماء عليه

لقد اعترف العلماء للتاج السبكى رحمه الله بأنه كان قمة فى العلم والفضل، والخلق القويم ، وأوسعوه مدحا وثناءً ، وترددت ألسنتهم كثيرا بذكر فضائله ورفيع قدره .

فقال عنه الشيخ إبراهيم الجار بردى الحنفي :" شيخ الاسلام والمسلمين إمام المحدثين خاتمة المجتهدين حجة الله على العالمين ، أفضل أهل الزمان باتفاق أهل العلم والعرفان "(١) .

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى فى حقه : " شيخ الاسلام أوحد المجتهدين فى عصره إمام العلوم على الأبد ، والسيد الحافظ الذى داره لا دار مية بين العلياء والسند ، فهو بين العلماء إمام ملتهم، ومجلى حلبتهم والمنشد عند طلوع أهلتهم :

أخذنا بأفاق السماء عليكمو . . لنا قمراها والنجوم الطوالع(٢)

وقال عنه صاحب درة الأسلاك فى تاريخ الأفلاك :" إنه إمام كبير وحاكم خبير، وماجد ، فخر علومه فى الآفاق مستطير ، أغصان مكارمه باسقة ، وأنهار فضائله دافقة ، تبجحت بمرافقة أرباب السياسة، وافتخرت بمقارنة تاجه رؤوس الرئاسة ، وانشرحت بأحكامه صدور المجالس، وتأرجت بأنفاسه أرجاء المنابر والمدارس (٣) .

---

(١) ذكره عنه فى الطبقات ١٠ / ٦١ .

(٢) انظر فى الطبقات ٩ / ٣٥٥ .

(٣) كذا ذكره فى مقدمة معيد النعم ص ط .

ونقل عبد الحي الكتابي عن الشهاب أحمد بن قاسم قوله عنه :

" الامام المجمع على جلالة قدره وتمام بدره" .

بل قيل :" لو قدر إمام خامس مع الأئمة الأربعة لكان ابن السبكي (١)

---

(١) انظر فهرس الفهارس والأثبات ٢ / ١٠٣٧ ، وقد كان ابن القاسم العبادي مغرما بالرجل جدا ولذلك تجده في الآيات البينات ينتصر لأقواله غاية الانتصار، ويورد من الحجج والبراهين مايؤيد كل لفظة من ألفاظ جمع الجوامع ، ثم يرد على منتقدي هذا الكتاب بأسلوب قوي قد يصل أحيانا إلى حد التشنيع عليهم - انظر مثالا على هذا الآيات البينات ٣ / ١٥ .

الفصـــــــل الثانـــــــي

دراســـــــة تحليلية حول الكتـــاب

ويتضمـــن عـدة مباحـــــث :

الاوُل : مصطلحات المصنف فى هذاالكتاب

الثانى : مصادر الكتـــــــــــــــاب

الثالث : أهميـــــة الكتـــــــــاب

الرابـع : ملاحظـــات حـــول الكتـــــاب

الخامس : أسلوب المؤلف ومنهجهفى الكتـاب

اولا : أسلـوبـــه

ثانيا : منهجـــــه

المبحث الأول

مصطلحات المصنف فى هذا الكتاب

من هذه المصطلحات :

أنه إذا قال :" قال الشيخ الامام كذا " فالمراد به والده تقى الدين السبكى وإذا قال : " شيخنا " فالمراد به أبو الحسن الأشعرى واذا قال (علماؤنا) أو (أصحابنا) فالمراد بهم الشافعية ، وإذا قال (مشايخنا) أو (أئمتنا) فالمراد بهم الأشعرية ، وإذا قال (علماء السنة) فهو يقصد الأشاعرة ، واذا قال (الحكماء) فالمراد بهم الفلاسفة ، واذا قال (الفقهاء) فقصده فقهاء الشافعية ، واذا قال (قال (الأصوليون) فالمراد بهم المتكلمون ،وإذا قال (شرح المختصر) فالمراد به كتابه (رفع الحاجب) ، واذا قال(المختصر) فهو يعنى كتابه (جمع الجوامع) ، وإن قال (الطبقات) فالمراد كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) واذا قال (شرح المنهاج) فالمراد كتابه (الابهاج) فإن أضافه إلى والده : فالمراد به (الابتهاج) شرح منهاج النووى فى الفقه .

المبحث الثاني

مصادر الكتاب

أثبت المصنف في هذا الكتاب كثيرا من أقوال العلماء الواردة في مصنفاتهم فنقل عن مصادر كثيرة منها :

المستصفى، و الوجيز، والتهافت ، والفتاوى، للغزالي ، والبرهان والنهاية والمدارك لإمام الحرمين ، وشرح مسلم، والروضة، للنووي والأم واختلاف الحديث للشافعي ، وصحيح البخاري ، وقواعد ابن عبد السلام ، والتقريب والارشاد للباقلاني ، والحاوي للماوردي ، ومختصر ابن الحاجب والتصريف له ، ومقالات الاسلاميين للأشعري ، ورسالة القشيري ، وكتاب سيبويه ، والتسهيل لابن مالك ، والمحصول للرازي ، وفتاوى ابن الصلاح، ومقامات الحريري ، وكشف القناع ، والحلبيات ، والنوادر الهمدانية ، وشرح المنهاج لوالده الشيخ الامام ، إضافة إلى كثير من كتبه هو ، كشرح المختصر ، والابهاج ، وجمع الجوامع ، والأشباه والنظائر ، والطبقات ، والسيف المشهور[1] ، وغيرها .

فهذه الكتب تعتبر مصادر الكتاب في مادته كلها .

هذا وقد كتب المصنف كثيرا من هذا الكتاب من حفظه دون أن يستعين بكتاب فذكر في مبحث الأداء أنه كان من رأس القلم يكتب حيث لا كتاب ولا وقت متسع[2] .

---

(١) انظر لهذه النقول صفحات ٤٣ ، ٥٩ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٦٩ ، ٤٠٧ ، ٤٤١ ، ٤٦٥ من قسم التحقيق .

(٢) انظره ص ٥٧ .

المبحث الثالث

أهمية الكتاب

هذا الكتاب له أهمية عظيمة بين كتب الأصول باعتباره شرحا لكتاب جمع الجوامع ذى القيمة الرفيعة عند العلماء ومكملاً له، فبهذا الكتاب وضحت مسائل «جمع الجوامع» وحلت عقده و مشكلا ته، وصارت عبارته فى متناول الجميع .

وبه تدارك المصنف كثيرا من مسائل الأصول التى أغفلها فى جمع الجوامع، لأن هذه الإيرادات التى وردت عليه لا تختص به و حده، ولا تتعلق بعبارته فقط ، بل هى أسئلة عامة شاملة ، تطرق فن الأصول جملة ، والمصنف رحمه الله لم يقتصر فى إجابته على مايخص جمع الجوامع من هذه الأسئلة ، بل قد أجاب عنها جميعها، حبا للفائدة ، وإتما ما لموضوع الكتاب.

قال رحمه الله فى نهاية أجوبة القسم الأول من هذه الايرادات : قال : " وأنت ترى أكثرها لا اختصاص له بكتابنا جمع الجوامع بل هى أسئلة تتعلق بالفن من حيث هو .

ونحن قد أجبنا عنها جميعها، وكنا قادرين على دفع مالا يتعلق منها بخصوص الكتاب، وذلك حبا للفائدة من حيث هى، وكذلك الأسئلة التى سنذكرها أكثرها من هذا الطراز " (١) .

كما أن هذا الكتاب قد صار عمدة عند علماء الأصول الذين تناولوا جمع الجوامع بالشرح أو التعليق ، فعولوا عليه كثيرا فى بيان مقصود المؤلف

---

(١) انظر ذلك ص ٢١٦ قسم التحقيق .

من عبارته ونقلوا منه المقاطع إلى كتبهم فازدانت بها وترشحت وسلمت من التخيلات(١) .

وأيضا باعتباره آخر كتب المصنف الأصولية فإن أراءه فيه هي المعول عليها،في المسائل التى كان يتردد فيها نظره فى كتبه الأخرى ، لأنها جاءت بعد أن تمت شخصيته العلمية وبلغ أشده .

فقوله هنا يعتبر آخر الأمر من أقواله فالعمل عليه فيما خالف فيه غيره ، ومن أكبر ميزاته أيضاً أنك تجد المصنف فيه كثير الاستدراك على كلام الأصوليين،ومن الأمثلة على ذلك قوله إن عدول الآمدى وابن الحاجب فى تعريف الفقه عن لفظ " العملية" إلى لفظ " الفرعية" ليس بجيد ،لأنه لا يدخل فيه وجوب اعتقاد مسائل الديانات التى لا تثبت إلا بالسمع: قال فإنها عندى فقه،وليست فرعية "(٢)

وفى تعريف الأداء قال :" وإنما عدلنا عن مثل قول ابن الحاجب وغيره . " الأداء مافعل فى وقته المقدر له شرعا أولا " لأنك إذا تأملته وجدته مع فساده حدا للعبادة المؤداة لا للاداء "(٣) .

وفى مبحث الاشتقاق ، ذكر أن مذهب القاضى أبى بكر والغزالى وإلكيا الهراسى فى منع الاشتقاق ، من المجازات ساقط،وأن الصواب جوازه منهما جميعا "(٤) .

---

(١) ومن هؤلاء العلماء بدر الدين الزركشى فى كتابه " تشنيف المسامع والجلال المحلى فى شرحه على جمع الجوامع والشربينى فى تقريراته عليه واحمد بن قاسم العبادى فى الايات البينات وغيرهم فمن تصفح كتبهم وجد من هذه النقولات الشيء الكثير .

(٢) راجع ص ٢٢ ، ٢٣ . تحقيق (٣) انظره ص ٥٥ تحقيق

(٤) انظر ذلك ص ٢٢٩ . تحقيق

وفى مسألة المكره قال : إن قول القاضى والغزالى بأن السكران الطافح لا يكلف كسائر من لا يفهم ، مما لا نوافقهما عليه ، بل هو مكلف قطعا" إلى غير ذلك من الأمثلة المبثوثة فى ثنايا الكتاب .

كما أن فيه كثيرا من المباحث المحققة تحقيقا يندر وجوده فى غيره . كتحقيقه الفرق بين اسم الجنس وعلمه ، وبين الغنم السائمة وسائمة الغنم ، وكلامه على حرف (لو) ، وعلى الاسم والمسمى ، والسعادة والشقاوة وغير ذلك من المباحث المجودة . (١)

---

(١) راجعه ص ٢٣١ ، ٤٤٨ ، ٧٢ ومابعدها ، ص١٦٤ ، ١٩٣ . تحقيق

المبحث الرابع

ملاحظاتي على الكتاب

من خلال معايشتي لهذا الكتاب تبين لي فيه بعض الملاحظات وكان من أهمها :

١) أن المصنف رحمه الله لم يرتبه الترتيب اللائق به، وكان من الأفضل لو أنه فعل ذلك و ساقه على نسق الكتاب الأصل" جمع الجوامع" فإنه سيكون أفيد للقارئ، وأدعى إلى لم ذهنه، وشد انتباهه إلى عبارة النص .

٢) أنه كان يبتز بعض الأجوبة أحيانا ويحيل القارئ على أحد كتبه الأخرى[١] وخاصة شرح المختصر، وكان الأجمل بالكتاب أن يكون تاما قائما برأسه، مستوفيا مباحثه بنفسه، لا تعلق له بغيره .

٣) أنه يورد فيه مباحث كاملة من علم النحو، فيبسطها، ويوشحها كثيرا ولذلك تجد الناسخ أحيانا يذكر المسألة ثم يحذف مايتعلق بها من فن النحو ويكتفي بقوله " وقد أطال المصنف في إعرابها كثيرا " [٢]

٤) أنه كان يترك شرح بعض القضايا التي يتعرض لها مع احتياجها للشرح، اعتمادا على أن القارئ الفطن سيعرفها من نظائرها المشروحه وعذره أنه كتب كثيرا من هذا الكتاب من حفظه دون الرجوع إلى الكتب وقد أشار هو إلى ذلك في مبحث الأداء حيث قال :

---

(١) راجع ص ٣٣، ١٠٣، ١٠٩، وغيرها كثيرمن صفحات الاحالات.

(٢) انظر ذلكفي كلامه على (غير) وذكره الوجوه فيها ص ١٢٥، وفي كلامه على أنواع الخبر ص ٤٦١ .تحقيق

" وأنت إذا تأملت ماشرحنا به الأداء والمؤدى فى هذا الكتاب عرفت به شرح كلامنا فى القضاء والمقضى فلا نطيل ونحن من رأس القلم نكتب حيث لا كتاب ولا وقت متسع" (١) .

---

(١) انظره ص ٥٧ وانظر كلامه أيضا ص ٢٦٠ .تحقيق

المبحث الخامس ـ أسلوبه ومنهجه

أولا : أسلوبه

لقد اعتنى التاج السبكى رحمه الله بالتصنيف بعد أن تأهل له ، واستوثق من زمام البيان ، فازداد بذلك اطلاعا على حقائق العلم ودقائقه[1] ، مما أكسبه دُربة على الأسلوب ، ومرانا على إبراز الفكرة ، وإيضاح العبارة ، وإيجازها بطريقة مثلى ولفظ مشرق وأسلوب بليغ كأنه الصباح يتنفس .

فلا تجده يوضح إيضاحا ينتهى إلى الركاكة ، ولا يوجز إيجازا يفضى إلى المحق والاستغلاق ، وإنما ترى أسلوبه بين ذلك قواما ، فهو إن أراد الاطناب أطال وأطاب ، وإن جنح إلى الإيجاز فخير الكلام ماقل ودل ، ولذلك فكثيرا ما نراه إذا شرح مسألة أحال على فهم القارىء مايشبهها رغبة فى الاختصار ، ومن باب حذف الثانى لدلالة الأول عليه . وإذا قرر مسألة تشتمل على مذاهب طوى بعضها فلم يذكره اعتمادا على السياق ، وثقة بأن القارىء سيدرك صنيعه .

ثم هو فى تصانيفه لا يعنى غالبا إلا بما لم يسبق إليه[2] بحيث لا تجد مصنفا لغيره يغنى عن مصنفه ، بل تجد تصانيفه اللطاف مملوءة بأبحاث مخترعة له وأقوال مبتكرة وزيادات يحتفل بها ، ويكثر الاحتياج إليها[3] .

---

(١) لأن التصنيف يضطر صاحبه دائما إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة ، والالمام بمختلف كلام الأئمة .

(٢) ولذلك تجده فى كثير من مباحثه يقول : وهذا كلام لا تجده عند غيرى وهذه قاعدة ضرورية نافعة لا تراها فى شىء من كتب الأصول ، وهذه فائدة لم يذكرها أحد غيرى وهكذا .
انظر على ذلك الطبقات ٢/٢٢ ، ٣/٣ وراجع مباحث القياس فى جمع الجوامع وفى كتابنا هذا .

(٣) قال فى الابهاج : ٢/١٣٧ : " وأنا من عادتى فى هذا الشرح الاطناب =

وأما ماسبق إليه فلاتجده يتوقف عنده كثيراً إلا أن يضم إليه تنكيتا علميا أو زيادة تحقيق، أو نحو ذلك، مما تطمح إليه النفس ويشرئب له الفكر، وماسوى ذلك فإنما يشير إليه إشارات خفيفة، يرمز له رمز الفارغ منه الذى هو عنده مقرر واضح لاتفيده إعادته إلا السآمة والملالة.

ولذلك كان يقول :" وأنا دائما أستهجن ممن يدعى التحقيق من العلماء إعادة ماذكره الماضون، وأرى ذلك انحيازا عن رتبة العلماء البزل والأذكياء المهرة "(١).

= فيما لا يوجد فى غيره، ولا يتلقى إلا منه كبحث مخترع، أو نقل غريب، أو غير ذلك، والاختصار فى المشهور فى الكتب، إذ لافائدة فى التطويل فيما سبقنا إليه، وهل ذلك إلا مجرد جمع من كتب متفرقة لا يصدق اسم المصنف على فاعله ".

(١) وهكذا كان والده رحمه الله يمتاز بهذه الصفة" ومن يشابه أبه فماظلم " وقد أشار هو إلى ذلك فقال :" ومما أعتقد به عظمة الشيخ الامام رحمه الله أن عامة تصانيفه في مسائل نادرة الوقوع، مولدة الاستخراج، لم يسبق فيها للسابقين كلام، وإن تكلم فى آية أو حديث أو مسألة سبق إلى الكلام فيها اقتصر على ذكر ماعنده، مما استخرجته فكرته السليمة، ووقفت عليه أعماله القويمه ".

غير جامع كلمات السابقين، كحاطب ليل يحب التشبع بما لم يعط، وأن يحمد بما لم يفعل، حظه من التصانيف جمع كلام من مضى فإن ترقت رتبته وتعالت همته لخص ذلك الكلام، وإن ضم إلى التلخيص أدنى بحث أواستدراك، فذاك عند أهل الزمان الحبر المقدم والفارس المبجل ثم قال :" إنما الحبر عندنا من يملى عليه قلبه ودماغه، وتبرز منه التحقيقات التى تشهد الفطرة السليمة بأنها فى أقصى غايات النظر ".

انظر الطبقات ١ / ٩٩ ومابعدها.

ثانيا : منهجـــــــــه

سنذكر هـنا منهج المؤلف فى كتابيه جمع الجوامع، ومنع الموانع، لانهما متلازمان، إذ الأول أصل للثانى وبينهما عموم وخصوص، وعن طبيعة المنهـــج يقول محمود شاكر رحمه الله :" المنهج من حيث هو ينشطر عند الباحثين إلى شطرين، شطر المادة، وشطر التطبيق ، فشطر المادة يتطلب قبل كل شـــىء جمعها من مظانها على وجه الاستيعاب المتيسر، ثم تصنيف هذا المجموع وتمحيص مفرداته، تمحيصا دقيقا، حتى يتيسر للمؤلف أن يرى ما هو زيف جليا واضحا، وما هو صحيح مستبينا ظاهرا . . . ؟

أما شطر التطبيق، فيقتضى ترتيب المادة بعد نفي زيفها وتمحيـــص جيدها باستيعاب أيضا لكل احتمال للخطأ .

ثم على المؤلف بعد ذلك أن يتحرى لكل حقيقة موضعها اللائق بهـــا لأن أخفى إساءة فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها، خليق بأن يشـــوه عمود الصورة تشويها بالغ القبح والشناعة .

ولذلك كان شطر التطبيق هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيـــه العقول، وتتصادم الأفكار، وتختلف فيه الأنظار اختلافا بينا، قربا وبعدا من وجـه الحقيقة، فهذه طبيعة هذا الميدان وطبيعة النازليه من العلماء والأدبـــاء والمفكرين "(١)

والتاج السبكي رحمه الله في كتابه (جمع الجوامع) قد حكى لنا أنـــه جمع مادته من زهاء مائة مصنف فكان جمعه هذا مستوعبا إلى أبعد الحدود(٢)

---

(١) انظر كتاب المتنبىء لمحمود شاكر ص ٢٢ .

(٢) قال فى خطبته :" . . ونضرع إليك فى منع الموانع عن إكمال (جمـــع الجوامع) الآتى من فن الأصول بالقواعد القواطع . الوارد من زهاء مائة مصنف . . " ص١٠١ من مجموع المتون .

ثم أخذ ينخل هذه المادة المجموعة ويمحصها وينتقى جيدها، بقريحة وقادة ونفس عالمة وبتجرد وأناة، وعزم لا يلين . . واستمع إليه يصور مالاقاه وكابده فى شأن هذا الكتاب، حيث يقول عنه في مقدمة المنع: " وأيم الله لقد استوعب منى كثيراً من أوقات الفراغ، وأخذ من أقلامى وأفكارى ماكاد يستفرغ مدد المداد والدماغ، فلو كان ذا لسان، لا دعى أنه نفيس عمرى ونخبة فكرى والذى شمرت فيه عن ساق الجد، وقد عدمت فى الديجور أعوانا على سهرى . . " (١) .

ولذلك جاء كتاب "جمع الجوامع" بين كتب الأصول كالغرة فى الجبين فبهر العلماء، والتفتت أنظارهم إليه بأعنة الاعجاب والاكبار، وذلك لما امتاز به من حسن السبك و الصياغة وجمعه المعاني المتكاثرة فى ألفاظ قليلة معبرة، فكان كما قال " فى كل ذرة منه درة " (٢) .

ثم نظمه فى مقدمة وسبعة كتب وخاتمة . (٣)

---

(١) مقدمة منع الموانع ص١١ من التحقيق .

(٢) انظره ص ١٨٥ من الكتاب فى مجموع المتون

(٣) وقد أخلى المصنف رحمه الله هذا الكتاب من قضايا المنطق، التى كثيرا مايولع الأصوليون بذكرها في مقدمة كتبهم الأصولية، كما فعل الغزالي فى المستصفى، وابن الحاجب فى مختصره، وغيرهما ممن يرى علم المنطق - متداخلاً مع علم الأصول، والحقيقة أنه لا تداخل بينهما، بل كل منهما فن قائم برأسه، وما اجترار القضايا المنطقية إلى علم الأصول إلا عارية مستكرهة ، وقد أحسن المصنف صنعا بإغفاله ذلك .
وأما ترتيبه لموضوعات الكتاب على مقدمة وسبعة كتب وخاتمة، فهى طريقته الخاصة ولم يذكر لذلك تعليلا فى المقدمة كما فعل الغزالي فى المستصفى، وأبو الحسين البصرى فى المعتمد، وغيرهما، ولعل إرادة - الاختصار منعته من ذلك، كما أنه لم يسر على نهج ابن الحاجب فى تناول مسائل الكتاب ولا على نهج البيضاوى من أصحاب المختصرات بل كان كثيرا ما يخالفهما فى تقديم موضوع على آخر والاهتمام بمسألة دون أخرى ثم هو قد جعل كتابه فى الأصلين فاحتاج إلى طريقة خاصة يسير عليها.

ذكر في المقدمة تعريفات الأصول والفقه والأحكام الشرعية ومتعلقاتها، وجعل الكتاب الأول في" الكتاب ومباحث الأقوال" فذكر تحته مايتصل باللغات ودلالات الألفاظ من منطوق ومفهوم ،وحقيقة ومجاز ، وأمر ونهي ،وعام وخاص ومطلق ومقيد ،ومجمل ومبين ،وناسخ ومنسوخ ،وغير ذلك من المباحث ، ثم أتبعه بالكتاب الثاني، وضمنه السنة ومايلحق بها من مباحث الأخبار، وجعل الثالث في الإجماع وأنواعه ،والرابع في القياس وتوابعه ،والخامس في الاستدلال، والسادس في التعادل والتراجيح ، والسابع في الاجتهاد ،ثم جعل الخاتمة في التصوف ،على هذا المساق نهج فيه ورتبه في تسلسل منطقي يأخذ بعضه بحجز بعض .

وأما تناوله لمسائل الكتاب وكيفية سيره في ذلك ،فإننا نكتفي له بضرب مثال واحد لتوضيح الصورة وبيان الحال : قال رحمه الله في مبحث الاجماع : " وقد نثرنا مسائل الاجماع على (الحد) أحسن نثر واستخرجناها كلها من التعريف، على عادتنا في هذا الكتاب، التي لم نسبق إليها، وهي البداءة بالتعريف، ثم استخراج مسائل الباب منه، بحيث يلوح لذي الفطنة اكتفاؤه بالتعريف، عن النظر في تلك المسائل، لإمكان فهمه إياها منه ، ولا يبقى في إعادة ذكرها إلا فائدة التنصيص عليها، وحكاية الخلاف فيها، والتنبيه على قيود قد تعتورها" .

وكان دائما يفتتح المسألة بمايراه ويختاره ثم يذكر مذهب الخصم بعد ذلك، ويرى أن افتتاح المسألة بمذهب الخصم لا يحسن لأنه يوهم أن مذهبه هو الجادة، وكان يقول : ومن عادتي أن ما أضربه مثلا إن كان موجودا في الكتاب أو السنة أو كلام العرب أو حملة الشريعة أطلقه ، وإن كان غير موجود أقول كقولك، أو كما لو قيل ونحوه . . " وفي حالة ذكره لخلاف في المسألة كان يقول : " ونحن أبداً نشير بلفظ (ولو) إلى خلاف ضعيف فإن قوى أو تحقق صرحنا به وإلا اكتفينا بهذه الإشارة فاعرف ذلك . . " (١)

---

(١) انظر كلامه في كتابنا هذا ص٨٦ ، ١١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٦٧ قسم التحقيق .

أما منهج المؤلف في هذا الكتاب فقد كان يتراوح بين السير على طريقة الكتاب الأصل تارة، وبين العدول عنها تارة أخرى.

فكان رحمه الله يجيب على الأسئلة التي وردت عليه إجابة مرتبة بحسب ترتيب الأصل في الغالب، وقد تم له ذلك في القسمين الأولين من تلك الأسئلة(١)، أما القسم الثالث(٢) وهو أهم هذه الأقسام، وأكثرها فائدة، فلم يرتبه على نسق الأصل، بل كان يجيب على الأسئلة التي ترد إليه حسب وقوعها ووصولها إليه،

---

(١) القسم الأول من هذه الأسئلة هو ما أورده عليه الشيخ الامام شمس الدين محمد بن محمد الأسدي الشافعي المتوفى (٨٠٨) وسماه (البروق اللوامع فيما أورد على جمع الجوامع) ويتكون من ثلاثة وثلاثين سؤالاً قال في كشف الظنون ١/٩٥٥ أرسل بها الشيخ الاسدي إلى المؤلف وهو في صلب ولايته، فلما رآها أثنى عليه وأجابه عنها في مؤلف سماه (منع الموانع). وقد أجاب المصنف على هذه الأسئلة من حفظه، دون أن يستعين بكتاب كما ذكر ذلك ص ٥٧ من التحقيق.

وفي نهاية هذه الأسئلة ص ٢٩٦ قرر أن أكثرها لا اختصاص له بجمع الجوامع، بل هي أسئلة تتعلق بالفن من حيث هو، ولكنه أجاب عليها جميعها اتماما للفائدة.

وأما القسم الثاني من الأسئلة المذكورة، فقد ذكر أنه أرسلها إليه الشيخ الامام السيد الشريف جمال الدين الخراساني حين ورد عليه من مدينة حلب، وكان اكثرها من طراز الأسئلة السابقة قد مضى الجواب عنها في القسم الأول، فتركه ثم أجاب عن الباقي، لذلك جاءت مختصرة في حدود خمس عشرة صفحة.

(٢) هذا القسم هو عبارة عن الأسئلة التي وقعت إليه مفرقة في أثناء الدروس التي كان يلقيها على الطلاب، وفي الحلقات العامة، ومجالس العلم التي كان يتصدرها، وهي تربو على القسمين الأولين وفيها من الحوار

فسؤال في القياس، وبعده سؤال في مباحث الكتاب، ويعقبه سؤال في الخاتمة ، ثم يتلوه آخر في المقدمة، وهكذا كيفما اتفق .

ولو أن المصنف رحمه الله التزم الترتيب في جميع هذا الكتاب لكان ذلك أجمل وأفضل ولكان أدعى إلى دراسته والاستفادة منه .

وقد قصد المصنف رحمه الله هذا الترتيب المشوش وذكر أنه سيورد أسئلة هذا القسم على ترتيب وقوعها وورودها عليه، لا على ترتيب الكتاب[1] ولعله رحمه الله كان يود أن يرتبها لو امتد به الزمن ، ولكنه لم يسعفه الوقت فكان يتمنى أن تتاح له الفرصة ، ويشرح الكتاب شرحا وافيا، يبرز فيه مقاصده ومراميه ، ويرد على مثل هذه التساؤلات ضمن ذلك الشرح، على نسق الكتاب الأصل، فكان يقول : " ولو وسع وقتي لكتابة شرح عليه واف بالغرض منبه على ما رمزت إليه على وجه الاستقصاء لدخل في أسفار كثيرة[2] ، ولكنه لم يجد الوقت الكافي لذلك . ولذلك كان رحمه الله إذا شرح مسألة أضرب عن نظيرها اكتفاء بشرحها وأحال القارئ إلى فهمه وقوة نظره ، كقوله مثلا في مبحث (لو) .

" وأنت إذا فهمت ما ألقيته إليك في الآية من المعنى نقلته إلى الأثر وغيره " [3] .

وقوله في مبحث الأداء : " وأنت إذا تأملت ما شرحنا به الأداء والمؤدى في هذا الكتاب عرفت به شرح كلامنا في القضاء والمقضى فلا نطيل .

" [4]

= الهادي ومن التحقيق والتدقيق ما لا مزيد على حسنه، وإن كان بعض المباحث فيها لا يخلو من غموض ملحوظ كما سنراه في بعض مباحث القياس .

(١) انظر ذلك ص ٢٣٠ تحقيق

(٢) انظره ص ٣٠٤ من كتابنا هذا تحقيق

(٣) الآية هي قوله تعالى : "ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله " ، والأثر هو قول عمر رضي الله عنه في صهيب " لو لم يخف الله لم يعصه " انظر ذلك ص ٩٧ من هذا الكتاب .

(٤) انظر ص ٥٠٧ تحقيق .

فهذا يشير إلى أنه رحمه الله كان فى عزمه أن يقوم بشرح «جمع الجوامع» فيبسطه كل البسط لو تمكن من ذلك، ولكن المنية اخترمته قبل تحقيق ماكان يصبو إليه. ومع هذا فان «منع الموانع» يعد شرحا مختصرا لمعظم مشكلات الكتاب، كما قد أشار هو إلى ذلك، وعلى مساق كلامه، يمكن أن نعرف بقية المسائل التى لم تشرح بتأملنا للمشروحة منها بطريق القياس الذهنى، ونقل النظر من هذه إلى تلك .

ولذلك فقد اعتمد الشراح على «منع الموانع» كثيرا فى تحليل ألفاظ جمع الجوامع، وفك رموزه ومغلقاته ثم حاولوا السير على هذا المنوال، يعرف ذلك من نظر فى تلك الشروحات المتكاثرة . وقد سار المصنف فى تناول موضوعات هذا الكتاب على طريقة واحدة وهى أنه يذكر كلامه مورد السؤال من «جمع الجوامع» ثم يردفه بنص السؤال الوارد عليه، ثم يعقب ذلك بإجابته، فيبرهن على صحة عبارة جمع الجوامع وسلامتها، مدللا على ذلك بما يراه من النصوص وأقوال العلماء وهكذا . .

الفصـــل الثالـــث :

في التعـريف بكتبه الأُصولية واعتداده بأرائه فيـها

وتحته ثلاثه مباحث :

المبحث الأوّل : التعـريف بكتبه الأُصولية الأُربعة

المبحث الثاني : اعتداده بأرائه فيـها

المبحث الثالث : إنصافه لخصومه ورجوعه إلى الحق في مواقفه

المبحث الأول

التعريف بكتبه

للتاج السبكي رحمه الله أربعة كتب في الأصول هي الإبهاج ، وشرح المختصر ، وجمع الجوامع ، وشرحه منع الموانع ، وهذه نبذة مختصرة عنها .

أولا : الابهاج :

هذا الكتاب كان قد ابتدأه والده الشيخ الامام رحمه الله فعمل منه قطعة يسيرة (١) انتهى فيه إلى مسألة مقدمة الواجب ، ثم أعرض عنه صفحا ، فأكمله التاج في حياة والده ، حيث انتهى منه سنة ٧٥٢هـ وتوفي والده سنة ٧٥٦هـ وقد سار المصنف في هذا الكتاب سيرا وسطا بين الإيجاز والاطناب ، فكان من عادته الاطناب فيما لا يوجد في غيره من الكتب ولا يتلقى إلا منه ، كبحث مخترع أو نقل غريب أو غير ذلك (٢) .

والاختصار في المشهور في الكتب إذ لا فائدة في التطويل فيما سبق إليه ، فجاء كتابا وسطا بين كتب الأصول .

ثانيا : شرح المختصر :

كان المصنف رحمه الله قد وعد بهذا الشرح الجليل في آخر الابهاج ، حيث قال : " وفي عزمي والله الميسر أن أضع شرحا على مختصر ابن الحاجب ، بسيطا ، لا عذر لي إذا لم آت فيه بالعجب العجاب ، محيطا بهذا العلم على أتم وجه " (٣) ، وقد وفى بوعده رحمه الله ، فوضع شرحا غاية في الإجادة والاستقصاء ،

---

(١) ذكر صاحب كتاب البيضاوي وأثره في أصول الفقه أن الشيخ الامام كان معنيا باتمامه لولا فجأة الوفاة وان المصنف إنما أكمله بعد وفاة والده - وهو خلاف الواقع ، انظر كلامه هذا ص ٣٤٥ .

(٢) انظر الابهاج ٢ / ١٣٧ .

(٣) راجع الابهاج ٣ / ٢٧٥ ، والطبقات ١٠ / ٣٠٧ .

وكان يذكر نص ابن الحاجب ضمن شرحه، مدمجا له فيه، بحيث يظن القارئ أنه كتاب مستقل، وليس شرحا لكتاب آخر، مع عدم إغفال أى شيء مما ذكره ابن الحاجب، وقد أطال المصنف النفس فى هذا الشرح، فأطنب وأطاب، وأحاط فيه بعلم الأصول واستوفاه من كل جوانبه.. وسمى شرحه هذا "رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب" ، وذكر أنه سماه بذلك تبركا بصنيع والده، فإنه كان قد ابتدأه وعمل قليلا من أوله ، قال المصنف إنها نحو كراسة وذكر أنه لم يقف عليها (١) .

وذكر التاج أنه استمر فى هذا الشرح من أول سنة ٧٥٨ هـ إلى ربيع الآخر سنة ٧٥٩هـ، حوالى سنة وأربعة أشهر، وقد أشاد به بعد أن انتهى منه فقال فى آخره :" وهو شرح إذا رآه المنصف عرف أنا أتينا فيه بالعجب العجاب، ودعونا قصي الإجادة فأجاب، فهو حقيق بأن تضرب له أباط المطي، فإنا قد وفينا بحق مختصر حلت فيه العقد، وقام مصنفه يرحمه الله بوظيفة الايجاز التى قصر دونها كل بليغ وقعد ، ورمى المعانى من أمد بعيد، وقد قمنا بحقه خير القيام، ورضنا مصاعب النظر بالجد والاهتمام، فجمعنا بحمد الله فى هذا الشرح كل جميل وجليل، ووضعنا بتمامه عنا الحمل الثقيل ، وقد لا نسلم من حاسد على هذه النعمة، ونعمة الله مقرون بها الحسد" (٢)

ثالثا : جمع الجوامع :

هذا الكتاب مختصر صغير الحجم ولكنه فريد فى بابه قمة بين كتب الأصول وضعه المصنف فى الأصلين أصول الفقه، وأصول الدين، فجاء غريبا فى صنعه، بديعا فى فنه، عبارته شديدة الايجاز ولفظه يحكى الاعجاز ، اعتنى العلماء بشرحه فى سائر الأقطار، وانتشر صيته فى كافة الأمصار، وهو كتاب

---

(١) انظر الطبقات ١٠/٣٠٧ .
(٢) انظر ذلك ورقة ٣١٨ .

الناس شرقاوغربا وبقى كذلك أكثر من ثلاثمائة عام (١) .

وقد أودعه المصنف زيدة مافى شرحيه على المختصر والمنهاج مع زيادات كثيرة ، قال فى الطبقات :" وكتابنا جمع الجوامع مختصر جمعناه فى الأصلين جمع فأوعى ، نفع الله به ، وغالب ظننا أن فى كل مسألة فيه زيادات لا توجد مجموعة فى غيره ، مع البلاغة فى الاختصار " . (٢)

وقال عنه فى كتابنا هذا : « ولو أن الفطن تأمل صنيعى فى هذا المجموع الصغير ، الذى سميته جمع الجوامع ، وجعلت اسمه عنوانا على معناه . . . . واطلع على مغزاى فى ذلك ، لقضى العجب العجاب ، وعلم كيف أمطنا القشر عنا للباب . .

وقال :" واعلم أنى لم اقتصر فى هذا الكتاب على الموجود فى كتب الأصول ، بل ضممت إليه شيئا كثيرا من كتب المتكلمين والمحدثين والفقهاء ، وشيئا مجاوزا للحد ، مما سمح به الفكر ، واستخرجه النظر ، ووضعه الفهم موضعه ، مما لم أسبق إليه . »(٣)

ثم قال : إن اختصاره متعذر ، وروم النقصان منه متعسر ، إلا أن يأتى رجل مبذر مبتر ، فيتجاوز حد نفسه ، فإن فعل ذلك فسيفوت من أغراض الكتاب غرضا عظيما " (٤)

---

(١) شغل كتاب" جمع الجوامع" جما غفيرا من العلماء وطلبة العلم فى حياة مؤلفه ، وبعد موته ، واتخذ كتابا دراسيا فى المعاهد الاسلامية وبقى إلى عهد قريب يدرس فى الأزهر يدرسه الطلبة فى أواخر أيام دراستهم . فلما تغير نظام الأزهر ، عدل عن جعله من الكتب الدراسية وصار من المراجع المهمة .

(٢) انظر الطبقات ٢ / ٢١ .

(٣) انظره ص ٣٠٣ تحقيق .

(٤) انظر ذلك ص ٤٠٤ ، ومع ذلك فقد اختصره شيخ الاسلام فى لب الأصول فقصر ولم يلحق .

وقد وفر الله الكريم دواعي العلماء على الاشتغال بهذا الكتاب، شرحا ونظما، وحفظا ، فمن أوسع شروحه الآيات البينات، لابن القاسم العبادي (ت ٩٩٤) فإنه كتاب جمع فيه من التحقيق والتدقيق، وكثرة الأبحاث والانتصار للمصنف وشارحه المحلى ما يند عن الإمكان، ويتقاصر عنه أبناء الزمان .

ومن أجود شروحه، شرح الجلال المحلى (ت ٨٦٤) المطبوع معه وهو شرح وسط بين الايجاز والإطناب، وكذلك شرح البدر الزركشي الموسوم (بتشنيف المسامع) وهو أوسع من شرح المحلي وأقدم منه (١) .

رابعا : منع الموانع :

وهو كتابنا هذا موضع التحقيق ، شرح به المصنف ما استغلق واستبهم من مشكلات جمع الجوامع، وقد اعتمد عليه أغلب الشراح فى شروحاتهم لجمع الجوامع ، وهو كتاب وسط كما ترى وضعه المصنف بشكل إجابات على الأسئلة التى وردت عليه، بخصوص جمع الجوامع، وذكر أنه كالشرح لمشكل الكتاب، وكان يسير فى أجوبته بتفاوت بين البسط والاختصار حسب مايقتضيه المقام، وقد جاء بحمد الله شرحا وافيا بالغرض، فلا نطيل بذكر تفاصيله إذ هو بين أيدينا والنظر متوجه إليه .

وهناك كتاب خامس للمصنف اسمه (التعليقة) ذكره فى رفع الحاجب فقال :" ولقد أطلنا فى كتابنا التعليقة فى مسألة الاجماع السكوتى وذكرنا فيه من المباحث مايعسر على أبناء الزمان . وما لو رحل ذو الهمة لسماعه من بلد إلى بلد لحمد مسعاه " (٢)

---

(١) وقد ذكر صاحب كشف الظنون كثيراً جدا من شروحه وحواشيه انظر ذلك ١ / ٥٩٥ ومابعدها .

(٢) انظر رفع الحاجب ورقه ١٢٥ وقد ذكره ايضا فى مبحث "لو" من كتابنا هذا ص ٩٥ مشيدا بما أودعه فيه من التقرير على منع تعليل الحكم الواحد بعلتين مختلفتين .

المبحث الثاني

اعتداده بآرائه

التاج السبكي رحمه الله شخصية عبقرية فذة ، هكذا كان بين الناس وكان هو عند نفسه فوق هذه المثابة .

ولذلك نجده شديد الاعتداد بآرائه وأفكاره، قوى الحجة في مقاله ، لا يلين بسهولة، ولا يرجع عن رأيه بأدنى إشارة ، بل يكافح عنه ويحققه ويبرهن عليه ويدققه ويأتي فيه بكل مايراه ويستطيعه .

واستمع إليه في الأشباه والنظائر مدافعا عما ذهب إليه في منع التعليل بعلتين حيث يقول :" أصل قاطع : لا يجوز عقلا اجتماع علتين على معلول واحد وهذا الأصل مهدناه في شرح المختصر، وناضلنا عنه، وادعينا قيام القاطع عليه ، وحكمنا بأن مخالفه محجوج ببراهين العقول ، ونزلنا عليه من الفروع الفقهية مايرتفع عن همم الزمان " (١) .

وقال في مسئلة المكره بعد تقريرها في كتابنا هذا : مانصه

" وهذا تحقيق هائل عليك بعرض كلام الفقهاء والأصوليين و الخلافيين عليه ، فإن أباه فادراء ماعداه " (٢)

وقال في أخر جمع الجوامع مشيدا بمزاياه :" وقد تم جمع الجوامع علما ، المسمع كلامه آذانا صماً الآتى من أحاسن المحاسن، بما ينظره الأعمى ، فإياك أن تبادر بإنكار شيء منه قبل التأمل والفكرة، ففي كل ذرة منه درة " (٣) .

فانظر إلى قوة اعتزازه بنفسه وثقته المطلقة بما يقول ويقرر . .

---

(١) انظر ذلك ورقة ١٣٢ ،

(٢) انظره ص ٢٠ تحقيق

(٣) انظره ص ١٨٥ من كتاب مجموع المتون .

المبحث الثالث

إنصافه لخصومه ورجوعه إلى الحق

أولا : إنصافه لخصومه :

رغم اعتزاز المصنف بنفسه واعتداده القوى بما يراه ويقرره، ومناضلته الشديدة في تأييده وتسديده ، إلا أنه كان منصفا لخصمه لا يهتضم قدر أحد من الناس، شاديا كان أو متناهيا ، وهذه روح علمية سامية وأخلاق فاضلة[1]: وكمثال لما نقول أنظر إلى إشادته بابن الحاجب رحمه الله بعد أن رد كلامه في تعريف الأداء حيث قال :" وقد كان ابن الحاجب رحمه الله إماما مقدما في الأصول والفقه ، والنحو والتصريف، أمسكته البلاغة زمامها، وألقت إليه الفصاحة مقاليدها، وأعطاه الإيجاز كله، ومن بحر علمه اغترفنا، وبكثير علمه اعترفنا، فلا يظنن الظان أنا أردنا في هذا الكتاب مطاولته، فأين الثريا من يد المتطاول" [2] .

ثانيا : رجوعه إلى الحق إذا تبين له :

المصنف رحمه الله كثيرا ما يختلف كلامه في كتبه فنجده في بعضها يقرر المسألة على وجه ثم يرجع في كتاب آخر فيقررها بوجه مغاير له . . وهذه ميزة حميدة فقد كان رحمه الله وفاقا مع الحق، حثيث سير إليه، لا يتلكأ في الرجوع إليه حين يجده لائحا بينا، وإن كان قد صرح بخلافه، ومن ذلك أنه صرح في جمع الجوامع، بامتناع تكليف المكره ثم رجع في الأشباه والنظائر[3] وجوز تكليفه ، وصحح في مبحث (لو) من جمع الجوامع أيضا كلام والده ووافقه عليه في عدم

---

(١) قال عنه الشوكاني : إنه كان في غاية الانصاف والرجوع إلى الحق في المباحث ولو على لسان أحد الطلبة" ، انظر البدر الطالع ١/ ٤٦٧ .

(٢) انظر ذلك ص ٥٦ من هذا الكتاب.

(٣) انظره ورقة ١٢٢ .

كونها امتناعية ، ثم أضرب عن هذا الرأى ، وحاد عنه فى كتابنا هذا ، واختار أنها « حرف امتناع لامتناع »[1]

ولذلك كان يقول رحمه الله : " إن الصواب أن يرد من كلام المصنفين مايجب رده ، ويقبل مايجب قبوله ، وأما التكليف والتمحل والحمل على أبعد المحامل فشيء تستنكره العقول ، ولا يرضاه لنفسه ذو نفس أبية .

بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب القبر صلى الله عليه وسلم . " [2]

لذلك كله ، فقد امتاز رحمه الله بتحرى الصواب فيما يقرره واطراح ما خالفه وتزييفه ، وإن كان مرويا عن أكابر القوم ، فلا تجده يجامل أحدا فى الحق ولو كان أباه ، وهذا من حميد سيرته رحمه الله ورضى عنه .

---

(١) حيث قال رحمه الله : واعلم أنا كتبنا هذا ونحن نوافق الوالد إذ ذاك على ما رآه - أى فى عدم كونها امتناعية - ولذلك عبرنا عنه بلفظ الصحيح وأما الذى آراه الآن وأدعى ارتداد عبارة سيبويه إليه وإطباق كلام العرب عليه ، فهو قول المعربين ، وقول الوالد إنه منقوض بما لا قبل به مما لا يظهر لى " .
انظر ذلك ص ٨٨ من كتابنا هذا . .

(٢) انظر رفع الحاجب ورقة ٩ . ٤ .

الفصـــل الرابـــــع :

فى مكانته العلمية والمجالات التى برز فيها وفاق

ويشتمل على تسعة مباحث :

المبحث الأول : ابن السبكى الأصولى

المبحث الثانى : ابن السبكى الفقيـــه

المبحث الثالث : ابن السبكى المجتهد

المبحث الرابع : ابن السبكى المحدث

المبحث الخامس : ابن السبكى المؤرخ

المبحث السادس : ابن السبكى النحوى

المبحث السابع : ابن السبكى الأديب

المبحث الثامن : ابن السبكى الشاعر

المبحث التاسع : ابن السبكى المصلح الاجتماعى

تمهيـــــــد

لقد كان التاج السبكى رحمه الله دائرة معارف واسعة، احتوت إلـــى جانب العلوم الدينية معرفة مفصلة فى التاريخ والأدب واللغة والكلام وسائـــر فروع المعرفة فى عصره، فكان طودا عظيما فى كافة الفنون، تقدم على أقرانـــه، وفاق أهل زمانه، وصار أحد الجهابذة الأفذاذ من علماء الاســـلام، وقد امتـــاز رحمه الله بعقلية ذكية، وفطرة عجيبة، وقريحة متقددة أعجب الخلق حسن كلامـــه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، فانتشر ذكره فى الآفاق، ورزق الحـظ الأوفـر فى حسن التصنيف وجودته، والنصيب الأكبر فى جزالة التعبير وسهولته، واليد الطولى فى كشف المعضلات، وفتح المغلقات، والتبحر فى أصناف العلـــوم أصولها وفروعها . .

وهذه آثاره العلمية تشهد بذلك، فقد توج بها هامات الزمان، وجـــاءت من التحقيق والتدقيق بمكان مكين وقدر رفيع .

ولاغرو فى ذلك فقد كان لا يقدم على التأليف إلا بعد أن يستكمل كافة أسبابه، ثم يباشره بعد ذلك بفطنة، ونباهة وذهن يقظ، ونفس مرتوية من العلـوم وكان أمينا فى تصانيفه، فإذا نقل من كتاب أو استفاد منه، لا يستنكف عن أن يعـزو تلك الفائدة إلى قائلها، بكل أمانة، فلذلك بورك له فى علمه وحاله، وانتفع النـاس بمصنفاته فى سائر الأمصار، فانتشرت في حياته وكانت بعد موته أكثر شيوعـــا واستيلاء على مقاليد الخلق .

وبالجملة فقد كان رحمه الله سيد زمانه (١)

---

(١) قد يظن القارىء أنني أطنب فى وصف التاج السبكي وأبالغ فى الاشادة به ولست وحدى الذى يفعل ذلك، فقد وجدت الكثير من العلمـــاء والمؤرخين مطبقين على تعظيمه وتبجيله، وأقوال العلماء معتبرة . . ثم إننى لمعايشتى معه مدة، وقراءتى الكثير من كتبه، تبدت لى من خلالها سجاياه الحميدة، وشخصيته الفذة، وتوثق لدي عنه ذلك السمـــاع

وللسيـــادة معنى ليس يدركـه . . من طالب الذكر إلا باحث فهم

وهذه بعض المجالات العلمية التى برز فيها وحققها وقام فيها على قدم وساق ، نسوقها إليك بإيجاز فى المباحث التالية :

= الجميل . . فكنت معه كما قال الشاعر :

ومازالت الركبان تخبر عنكـم . . بكل جميل والزمان يحقـــق

فلما التقينا خلت فوق الذى به . . سمعت فنقل المجد عنكم مصدق

المبحث الأول

ابن السبكي الأصولي

من المعروف أن علم الأصول مستمد من اللغة والكلام والأحكام الشرعية فهذه الثلاثة الفنون هي مادة هذا العلم.

وقد كان التاج السبكي رحمه الله إماما مبرزا في كل منها ، فهو ضليع في اللغة والنحو، له في ذلك القدم الراسخة، والباع الطويل ، ويظهر ذلك من بعض مباحثه في كتابنا هذا كما سيتبين لك .

وهو في الكلام وقضايا التوحيد والاعتقاد، أشد تمكناً منه في غيره، وأما الأحكام الفقهية فقد سلمت إليه زمامها، وألقت إليه مقاليدها فصار فيها نسيج وحده وفريد دهره.

لذلك كله فقد كانت تصانيفه رحمها الله في أصول الفقه، تمتاز بالدقة والاستيعاب، وحسن العرض والمناقشة الجادة الهادفة، مما يدل على كونه من حفاظ هذا الفن ومجتهديه .

قال صاحب الآيات البينات :" وناهيك بجلالة المصنف وتقدمه في حفظ هذا الفن على غيره . . فإنه غير مقلد لأحد من الأصوليين بل له اجتهاده الخاص في علم الأصول" (١)

ومن نظر كتبه الأصولية وجدها في القمة بين كتب الأصول ، فقد نظمها أحسن نظم وكساها من كلامه أجزل لفظ، وأودعها تحقيقات باهرة وتدقيقات فريدة، تدل على السعة والعمق، فلا تجد له حشوا في كلامه البتة، بل كل لفظ في تصانيفه يتضمن أكثر من معنى، والناظر في كتبه يعلم ذلك علم

---

(١) انظر الايات البينات ٤/ ١٠٨.

اليقين وخاصة إذا وقع النظر من ناقد بصير .

وقد كتب فى الأصول أربعة كتب أشار هو إليها فى الأشباه والنظائر وأشاد بما احتوت عليه من الفروع المخرجة على قواعد الأصول فقال :

" أعلم أن لنا فى أصول الفقه مصنفات اشتملت على قدر كبير من الفروع المخرجة على الأصول، من نظره عرف أنا لم نسبق إليه ، ومن أحاط بما فى كتبنا الأربعة ، وهى شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح منهاج البيضاوى ، والمختصر المسمى" جمع الجوامع"، والأجوبة عن الأسئلة التى أوردت عليه المسمى " بمنع الموانع" من الفروع المخرجة على الأصول أحاط بسفر كامل من ذلك "(١) .

وقد أشهرته هذه المؤلفات فى أصول الفقه فأصبح بين الأصوليين ملحوظا بعين الاعتبار .

---

(١) انظر الاشباه والنظائر ورقة ١٤٤ .

المبحث الثاني

ابن السبكي الفقيه

الفقه ملكة راسخة في النفس، وبصيرة كاملة، يتمكن بها من قامت به من الاطلاع على أسرار الشريعة، ومن استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، التي هي الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وصاحب تلك الملكة الراسخة هو الفقيه المجتهد على الحقيقة، وقد كان التاج السبكي رحمه الله بهذه المكانة، فهو فقيه مرموق ذو دُربة عالية في مآخذ الظنون، في مجال الأحكام الشرعية، ولديه فقاهة نفس حقيقية، وهذه الصفة هي أنفس صفات علماء الشريعة، لكونها تكسب صاحبها قوة الفهم على التصرف، وتعطيه دراية تامة في الجمع والتفريق، والتصحيح والإفساد، ونحو ذلك مما هو ملاك صنعة الفقة، كما أن للتاج السبكي رحمه الله دراية وفهما كاملين بعلم الخلاف ومآخذ الأئمة وهو العلم الذي لا يصير المرء فقيها بدونه البتة..

قال في الطبقات " إن المرء إذا لم يعرف علم الخلاف والمآخذ لا يكون فقيها حتى يلج الجمل في سم الخياط، وإنما يكون رجلا ناقلا، نقلا مخبطا، حامل فقه إلى غيره، لا قدرة له على تخريج حادث بموجود، ولا قياس مستقيل بحاضر، ولا إلحاق غائب بشاهد، وما أسرع الخطأ إليه وأكثر تزاحم الغلط عليه وأبعد الفقه لديه.." (١)

ولمعرفة مقدار رسوخ المصنف في الفقه وروائه من علوم الشريعة نسوق لك هذه الحكاية عنه :" قال في آخر الأشباه والنظائر بعد أن تكلم على أنواع المجتهدين ومراتبهم : قال :" وقد أردت أن أذكر لك هنا آية كانت ابتداء درسي بالمدرسة الأمينية، في يوم الأحد ثالث شهر ربيع الأول سنة ٧٦٣ هـ،

---

(١) انظر الطبقات ١/ ٣١٩.

وذلك أن بعض من لا أهلية له، سعى في هذه المدرسة، وكاد يقدم علي، لقربه من الدولة، فأحببت أن أريه كيف التدريس، وكيف ينبغي لمن طلب مناصب العلماء أن يكون ؟،[1] فعمدت إلى آية من الكتاب العزيز هي قوله تعالى : " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله" [2] الآية و استنبطت منها ماوصلت إليه قوتي ثم قلت بعد الخطبة مانصه . ." وأنا إن شاء الله تعالى استخرج من هذه الآية دون ماقبلها ومابعدها من فنون الفوائد في أنواع العلوم، مايزيد على مائة وعشرين فائدة، في الفقه، وأصوله، وأصول الدين والحديث، والتفسير، والطب، والفراسة وغير ذلك ، وشرطي في ذلك على نفسي أن لا أذكر شيئا سبقت إليه، ولا أتعدى الآية إلى غيرها . . ." [3] قلت :" تبارك الله ماذا تبلغ الهمم " .

قال ابن كثير:" وقد حضر عنده في هذا الدرس خلق كثير من العلماء، والأمراء والفقهاء، والعامة، وكان درسا حافلا، استنبط فيه من الآية المذكورة أشياء حسنة، وذكر ضروبا من العلوم، بعبارة طلقة جارية معسولة .

أخذ ذلك من غير تلعثم ولا تلجلج، ولا تكلف، فأجاد وأفاد، وشكره الخاصة والعامة من الحاضرين وغيرهم، حتى قال بعض الأكابر إنه لم يسمع درسا مثله . ." [4] .

فانظر إلى آثار رحمه الله في هذا الرجل، وما أودعه الله فيه من الفهم والاستبصار في أسرار كتابه وفي أمور شرعه ؛ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " [5] .

---

(١) قالت أياديه للحساد عن كثب . . ما أقرب العز إلا أنه هممم

(٢) الآية (٥٤) من سورة النساء .

(٣) انظر الأشباه والنظائر ورقة ع٢١٧ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٤ / ٢٥٠ .

(٥) الآية (٢٦٩) من سورة البقرة .

المبحث الثالث

ابن السبكي المجتهد

برغم أن التاج السبكى رحمه الله كان شافعيا ضليعا من أركان هذا المذهب، والذابين عنه والمتشددين فى تأييده، والمغتبطين بتقليد إمامه، إلا أنه قد ادعى لنفسه رتبة الاجتهاد المطلق، لتوفر شروطه فيه، ولا يخرجه ذلك عن أن يكون تابعا للإمام الشافعى، وسالكا طريقته فى الاجتهاد، ومعدودا من أصحابه . . فإنه لا منافاة بين الحالتين (١) .

---

(١) المجتهد أنواع : أعلاها المجتهد المستقل وهو الذى استقل بقواعده لنفسه يبنى عليها الفقه خارجا عن قواعد المذاهب المقررة، وهذا شيء قد فقد من دهر ، قال السيوطى : " بل لو أراده الانسان اليوم لا متنع عليه ولم يجز له، لأن أصول المذاهب وقواعد الأدلة منقولة عن السلف فلا يجوز أن يحدث فى الأعصار خلافها . . . ."
وذكر عن ابن الأمير المالكى : أن أتباع الأئمة الآن الذين حازوا على شروط الاجتهاد، مجتهدون ملتزمون أن لا يحدثوا مذهبا آخر، أما كونهم مجتهدين فلأن الأوصاف قائمة بهم ، وأما كونهم ملتزمين فإن إحداث مذهب زائد بحيث يكون لفروعه أصول وقواعد مباينة لسائر قواعد المتقدمين متعذر، لاستيعاب المتقدمين لسائر أساليب الشريعة . . " .
ثانيها : المجتهد المطلق وهو الذى وجدت فيه شروط الاجتهاد التى اتصف بها المجتهد المستقل، لكنه لم يبتكر لنفسه قواعد تخصه ، بل سلك طريقة إمام من أئمة المذاهب فى الاجتهاد ، فهذا هو المطلق فبينه وبين المستقل عموم وخصوص، فكل مستقل مطلق وليس كل مطلق مستقلا .
ثالثها : المجتهد المقيد فى مذهب إمامه، وهو المستقل بتقرير أصول المذهب بالدليل غير أنه لا يتجاوز فى أدلته أصول إمامه وقواعده ويسمى مجتهد التخريج ، وأقل منه مجتهد الترجيح ثم مجتهد الفتيا . . "
انظر كتاب الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١١٢ ومابعدها .

قال السيوطى : " وقد ادعى التاج السبكى رحمه الله لنفسه الاجتهاد المطلق[١] ، كتب مرة ورقة لنائب الشام فى ضائقة وقعت له فقال فى آخرها : " وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحد أن يرد علي هذه الكلمة " قال السيوطى والرجل مقبول فيما قاله عن نفسه ، فإن العلماء أدين وأورع وأخشى لله من أن يقولوا غير الحق ؛ والظاهر قبول قول العالم فى الإخبار عن نفسه أنه وصل إلى حيز الاجتهاد ، إذا كان عدلا ، قياسا على قولهم من ادعى الصحبة قبل قوله فى ذلك إذا كان عدلا ، لأن عدالته تمنعه من الكذب ، ولا نظر إلى اتهامه بكونه يدعي لنفسه رتبة عالية . . [٢]

---

(١) وقد روجع فى ذلك بأن ادعاءه هذا مردود بقول الغزالى فى الوسيط " وقد خلا العصر عن المجتهد المستقل" فقال "هذا القول لم ينفرد به الغزالى بل سبقه إليه آخرون ، وقد نظرت فى هذا الكلام وفكرت فيه وظهر لي أنه ومن سبقه إليه إنما أرادوا خلا عن مجتهد قائم بأعباء القضاء فانه لم يكن يلى القضاء فى زمنهم مرموق ولا منظور إليه بكثير علم بل كانت جهابذة العلماء منهم يربؤون بأنفسهم عن القضاء ، والا فكيف يمكن القضاء على الاعصار بخلوها عن مجتهد ؟ هذا منكر من القول . . " .

هكذا نقله العطار عن كتابه (ترشيح التوشيح)

انظر حاشية العطار ٢ / ٤٢٣ .

(٢) انظر كلام السيوطى فى حسن المحاضرة ١ / ٣٢٨ ، الرد على من أخلد الى الارض ص ١٩٧ ، تقرير الاستناد فى تيسير الاجتهاد ص ٦٥ .

بعض اختيارات المصنف التى خالف فيها المذهب الشافعى

لا يوجد للتاج السبكى رحمه الله كتب فقهية بين أيدينا نستطيع من خلالها أن نعرف اختياراته فى الفقه، فكتبه الفقهية مفقودة الآن، ولكننا من مطالعتنا لكتابه الأشباه والنظائر، وبعض كتبه الأصولية حصلنا له على بعض الاختيارات والتى منها قوله :

١) " المشهور فى المذهب جواز قول المصلى "الله الأكبر" أو " الله العزيز أكبر" قالوا ولا يضر تغيير بسيط كهذا .

قال المصنف" وأنا أختار أنه لا يجزى شيء غير " الله أكبر" لقوله صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتمونى أصلى" (١) .

قال : ثم أنا اعتقد أن " الأكبر" أبعد عن الاجزاء من "الله العزيز أكبر" والأصحاب مطبقون على العكس من هذا ، وإنما خالفتهم لأن " الله العزيز أكبر" ليس فيه شيء من التغيير، وإنما هو فصل يسير قد يغتفر، بخلاف " الأكبر" .

٢) وفى باب النهى من الأشباه والنظائر قال :"النهي إذا رجع الى الذات اقتضى الفساد عند علمائنا قاطبة .

قال : وهى من أمهات مسائل الخلاف، وقد اعتنا صت على قوم من المحققين، منهم الغزالى ، فذهبوا إلى أراء معضلة تدانى مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، ثم قال : والذى استقر عليه رأي أن النهى عن الشيء يقتضى صحته، وعدم الاعتداد به فى نظر الشارع ، فإن كان فى العبادات اقتضى صحته وعدم إجزائه، وإن كان فى المعاملات اقتضى صحته وعدم استقراره وسلط عليه الفسخ ، هذا ما رأيناه مذهبا ، وإن كنا

---

(١) رواه البخارى ٤ / ٥٢ .

نصرنا فى شرح المختصر وغيره من مصنفاتنا الأصولية غيره، ثم نحن لا نفرع عليه لكونه حائدا عن مذهب الشافعى رحمه الله، فنجرى على قاعدة المذهب .

٣) وفى مبحث المكره على أحد شيئين هل يعد مكرها أولا ؟ قال فى الأشباه :" الأصح عند الرافعى والنووى الثانى ،وفى نظرى أن الأول هوالا صح،ولا فرق عندى بينه وبين الاكراه على فعل معين، إلا ماقيل من أن هذا يجد مندوحة عن فعل أحد الشيئين بفعل الآخر منهما ،وذاك لا يجد مندوحة ،قال : وليس هذا الفرق بطائل،فإن القول فى المختص بالفعل منهما مقول فى الأخر ،وكل قول انعكس بنفسه بطل من أصله" (١)

وقال فى الأشباه أيضا " الصحيح عندى أن الأحكام ستة الواجب والمندوب،والحرام،والمكروه،وخلاف الأولى،والمباح " ، وذكر أن افتراق خلاف الأولى مع المكروه اختلاف الخاصين فالمكروه ماورد فيه نهى مخصوص كترك تحية المسجد ، وخلاف الأولى مالا نهى فيه كترك سنة الظهر. ."

وفى مسألة أن دلالة النكرة المنفية هل هو باللزوم أو بالوضع؟ اختار أنه باللزوم فى المبنية على الفتح وبالوضع فى غيرها : قال:" والقول باللزوم على الاطلاق هو قول الحنفية وبالوضع مطلقا قول الشافعية (٢) .

---

(١) انظر لأقواله هذه الأشباه والنظائر ورقه ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، وانظر الروضة للنووى ٩ / ١٣٨ .

(٢) انظر الاشباه والنظائر ورقه ١٤٤ ،وكتابنا هذا ص ١١٠

المبحث الرابع

ابن السبكي المحدث

التاج السبكي رحمه الله له باع طويل في علم الحديث ، فهو رجل محدث على الحقيقة ومن نظر كتابه الطبقات عرف هذا المعنى وقامت له البينة على صدق هذه الدعوى ، فنجده في هذا الكتاب يقعد القواعد الحديثية المهمة، التي لا توجد عند غيره . ففي كلامه على الجرح والتعديل مثلا ذكر قول العلماء" إن الجرح مقدم على التعديل" ثم استدرك عليه يقول :" إذا سمعت هذا الكلام ورأيت الجرح والتعديل، وكنت غِرا بالأمور، أو قَدما مقتصرا على منقول الأصول، حسبت أن العمل على جرحه ، فإياك ثم إياك، والحذر كل الحذر من هذا الحسبان ، بل الصواب عندنا أن من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه ، وندر جارحه، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو منافسة دنيوية أو غير ذلك، فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة وإلا فلو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه لما سلم لنا أحد من الأئمة ، إذ مامن إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون وهلك فيه هالكون . . " (١) .

ثم أضاف على قولهم " لا يقبل الجرح إلا مفسرا" فقال : إنما يكون هذا في جرح من ثبتت عدالته واستقرت ، فإذا أراد رافع رفعها قيل له ائت ببرهان على هذا، أما من ثبت أنه مجروح فيقبل قول من أطلق جرحه ، لجريانه على الأصل المقرر عندنا ، ولا نطالبه بالتفسير إذ لا حاجة إلى طلبه .

ثم إنا لا نطلب التفسير من كل أحد ، بل إنما نطلبه حيث يحتمل الحال

---

(١) انظر الطبقات ٢ / ٩ ، وقد شهد الذهبي للمصنف بأنه محدث جيد ، انظر الطبقات ١٠ / ٣٩٩

شكا . . أما إذا انتفت الظنون، وكان الجارح حبرا من أحبار الأمة مبرأ عن مظان التهم، أو كان المجروح مشهورا بالضعف متروكا بين النقاد فلا نتلعثم عند جرحه ولا نحوج الجارح إلى تفسير، بل طلب التفسير والحالة هذه طلب لغيبة لا حاجة إليها . . " (١) .

فهذا يدل على مشاركته مشاركة قوية فى الحديث وعلومه وقد شهد له العلماء بذلك قال عنه شيخه الذهبى : " كتب عنى الأجزاء وأرجو أن يتميز فى العلم" (٢) .

وقال ابن حجر :" إنه أمعن فى طلب الحديث وكتب الأجزاء والطباق حتى مهر وهو شاب، وخرج له ابن سعد مشيخة حدث بها " (٣)

وخرج جزءاً على حديث" المتيا يعين بالخيار" فقال والده فى ذلك :

عبد الوهاب مخرجه . . من فضل الله علي نشا

يارب قه مايحذره . . واقدر فيه الخيرات وشاء (٤)

وله كتاب الأربعين خرجه زمن الشباب وأنشده بسببه شيخه أبو الفتح السبكى قوله :

أجدت الأربعين فدمت تاجا . . لأهل العلم ذا فضل مبين

وأرجو أن أراك رفيع قدر . . وقد جاوزت حد الأربعين(٥)

---

(١) ثم أخذ يضرب لذلك، بعض الأمثلة : راجع الطبقات٢ / ٢٢ ومابعدها .

(٢) انظر المعجم المختص ص ١٥٢ .

(٣) راجع الدرر الكامنة ٢ / ٤٥ ، وفى كتاب الوفيات ٢ / ٣٦٣ أن ابن سعد خرج له معجما فى مجلدين ، وانظر البدر الطالع ١ / ٤١٠ .

(٤) انظر الطبقات ١٠ / ١٩١ .

(٥) المرجع السابق ٩ / ١٧١ ، وللمصنف أيضا تخريج لأحاديث إحياء علوم الدين للغزالى وقد ذكر فى الطبقات ٦ / ٢٨٧ فصلا فى الأحاديث التى لم يجد لها إسنادا فى كافة كتاب الاحياء .

وقال فيه برهان الدين القيراطي: إنه محدث ماهر متبحر في علم الحديث ، سيد حافظ مختص بعلو الاسناد ، ثم أنشد في إطرائه يقول :

إليك والا لاتساق الركائب .. وعنك وإلا فالمحدث كاذب

وقوله :

علم الحديث إلى أبي نصر غدا .. من دون أهل العصر حقا يسند

أضحى أمير المومنين بقبة .. ويد الخلافة لاتطاولها يد

إلى آخر كلامه فيه رحمه الله (١) .

فانظر هذه الأقوال وتبين مقدار تمكنه في هذا الفن .

---

(١) أورد المصنف كلام القيراطي هذا في الطبقات ٩ / ٣٥٤ ومابعدها .

المبحث الخامس

ابن السبكي المؤرخ

يعد التاج السبكي رحمه الله من عظماء المؤرخين (١) الذين سبروا حوادث التاريخ، وحققوا وقائعه، ودرسوا سير النبلاء والعظماء، الذين كان لهم مواقف مشهودة وآثار باقية في سجلات التواريخ .

ولا أدل على ذلك من كتابه " الطبقات " فهو الكتاب الذي لا نظير له بين كتب التراجم الموجودة بين أيدينا ، فقد وضعه التاج رحمه الله على نمط فريد من التحقيق والاستيعاب، وذكر أنه لم يضعه إلا حاويا مغنيا ناظره عن الالتفات إلى غيره من كتب التواريخ (٢) وقد ساعده على ذلك أنه كان منذ الصغر يردد النظر في أخبار الأخيار ويترقب أحوالهم ليحيط بمجمل ما احتوته أعمارهم وأزمانهم .

---

(١) ولذلك نراه رحمه الله في طبقاته يضع قواعد نافعة في المؤرخين، ويذكر أنهم على شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وقد ينقلون مجرد مايبلغهم من صادق أو كاذب، ثم يشترط أن يكون المؤرخ عالما عدلا، عارفا بحال من يترجمه، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه ، فيقول :" إن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا آخرين، إما لتعصب، أو لجهل، أو لمجرد الاعتماد على نقل من لا يوثق به، أو لغير ذلك من الأسباب، فلا بد في المؤرخ من الصدق في القول وحسن العبارة والمعرفة بمدلولات الألفاظ، وإذا نقل سمى المنقول عنه، وأن يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يغلبه الهوى، فيخيل إليه هواه الاطناب في مدح من يحبه، والتقصير في غيره "
أنظر الطبقات ١ / ٢٢ ومابعدها ، معيد النعم ص ٧٤

(٢) راجع الطبقات ١ / ٣٢١ .

وكان يجد من نفسه ميلا شديدا إلى الإلمام بالوقائع وتلقف ماصنعه السابقون فصدق فيه قول الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى . . فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وهو مع ذلك من هو ، خبرة ودراية بالأمور، لا يسجل كل مايقع عليه نظره، أو يحتك به سمعه ، بل لا يثبت إلا ما ارتضاه الحق فى نفسه، بعد أن يخبره وينقده نقد الخبير البصير، واستمع إليه يقول عن هذا الكتاب :

"ومن نظر كتابى هذا علم كيف كان البدر يغيب وأنا شاهد، وتيقن أنه وظيفة عمر رجل ناقد" (١) .

وكتاب الطبقات لم يقتصر فى الواقع على الجانب التاريخى، وإنما اشتمل على حديث، وفقه، وأدب، وفوائد أخرى تنسل إليها الرغبات من كل حدب. فتراه يذكر فيه ترجمة الرجل مستوفاة على طريقة المحدثين والأدباء ثم يورد فى أثناء ترجمته نكتا بديعة تسحر عقول الألباء ، وكان رحمه الله فى سيره هذا مع الأئمة ممن إذا سمع صالحا أشاع، وإذا رأى ريبة دفن (٢) .

---

(١) الطبقات ١ / ٢٠٩ .

(٢) ولذلك كان يقول رحمه الله تعالى :" ينبغى لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم فى بعض، إلا إذا أتى ببرهان واضح ، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فدونك ، وإلا فأضرب صفحا عما جرى بينهم ، فإنك لم تخلق لهذا فاشتغل بما يعنيك ودع مالا يعنيك ، ثم أضاف يقول :
ولا يزال طالب العلم عندى نبيلا حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين، ويقضى لبعضهم على بعض ، فإياك ثم إياك أن تصغى إلى ما اتفق بينهم . . . فإنك إن اشتغلت بذلك خشيت عليك الهلاك فالقوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ، وربما لم يفهم بعضها فليس لنا إلا الترضى عنهم، والسكوت عما جرى بينهم، كما يفعل فيما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم" ، راجع الطبقات ٢ / ٢٧٨ .

وقد اختار لهذه الطبقات أن تظهر على هذا المستوى من التنويع ، لتكون أشرح لنفس القارىء ، وأجذب لعقله وشعوره ، فلذلك نجده يقول عنها ، " فبينا الفقيه منها فى عويص الفروع المشتبكة إذا به فى رياض من آداب تحرك فاقد الحركة ، وبينا الأديب في نشر حلل مطرزة إذا به فى مواعظ وحكم موجزة ، وبينا المريد فى سلوك الطريق ، إذا به فى أحاديث مسندة يعلم أنها من باب التوفيق ، وبينا المؤرخ فى حكايات انقضى زمانها إذا به قد عثر على تراجم يعز على المنقب وجدانها ، وقد جاء بحمد الله مجموعا آخذا من كل فن بنصيب .

قال : وهذا المظهر أجلب للمطالعة وأخلب للألباب . "(١)

ثم أشاد المصنف بكتابه هذا أبلغ إشادة ، وذكر أنه اشتمل على بحر زاخر من غرائب المسائل ، وقدر وافر من عجائب الأقوال والدلائل ، وغيث هامع من العلم ، تتقاصر عنه الأنواء ، وأنه كتاب أصيل ، يتلقاه ذو المعرفة باليمين ، ثم أنشد يقول :

لما كرمت نطقت فيك بمنطق . . حق فلم أكذب ولم أتحوب

ثم قال : نعم والله إنه لكتاب إذا قال أصغت الاسماع لما تلفظ به ، وإذا صال زحزح كل مشكل من المشكلات ومشتبه . .

مازال يقصر كل حسن دونه . . حتى تفاوت عن صفات الناعت

ومن أنفق من خزانة علمه لم يخش من ذى العرش إقلالا ، ثم أضاف يقول : وكأنى بمن يحسد الشمس ضوءها ، ويجهد أن يأتى لها بنظير ، ويطاول منه الثريا وما أبعدها عن يد المتناول ، فيرجع إليه بصره خاسئا وهو حسير ، إلى آخر هذا الاطراء (٢) .

---

(١) انظر الطبقات ١ / ٢٠٩ .

(٢) انظر ذلك ١ / ٢١٢-٢١٥ ، ولاحظ قوله " فمن رام معارضته وقال ==

وهو فخر زائد كما ترى يمكن أن يؤخذ عليه لولا اعتبارات من سنه وحساده و مايعده العلماء من التحدث بنعمة الله، فقد كان سنه صغيرا - وحساده كثر، فأراد أن يهزهم هزات معنوية هي نوع من الدفاع عن النفس لذلك نراه رحمه الله عندما تفطن لهذا الفخر رجع عنه سريعا، حيث قال :

" ولست أقول هذا لأنفق البضاعة، بل لأشوق أرباب الصناعة، وأجمع على سننه أهل السنة والجماعة ... إلى أن يقول : فعند ذلك قلت لا للفخر والسمعة، بل لإبانة الحق وحسن الصنعة .

وأنامع وصفي هذا الكتاب ما أبرئ كتابي ولا نفسي من شك ولا ريب، ولا أبيعه بشرط البراءة من كل عيب.

ولا أدعي فيه كمال الاستقامة ولا أقول بأن الطبقات جمع سلامة، بل إذا دار في خلدي ذكر هذه الطبقات اعترفت بالقصور، وسألت الله الصفح الجميل(١)"

= كم ترك الأول للآخر فسبيل الحاكم بيني وبينه القائم بالنصفة أن يقول ما أمرك برشيد أيها القائل إنه لقادر، مالم تنبذ هذا الكتاب وراء ظهرك وتحاول قواك غير متأمل فيه ولا ناظر" إلى آخر كلامه .

(١) انظر الطبقات ١ / ٢٠٩ ومابعدها .

المبحث السادس

ابن السبكي النحوي

للتاج السبكي رحمه الله دراية تامة بعلوم العربية، وهذا الأمر واضح جلي، يلمسه القارئ لأول وهلة عند تصفحه لكتابه القيم " الأشباه والنظائر" ففيه الكثير من المباحث النحوية المجودة، وفي كتابنا هذا تجد له بعضا من هذه المباحث النحوية، التي تبرز فيها مقدرته في هذا العلم وسعة اطلاعه وتفوقه، فتراه يصول فيها ويجول، وكأنه من أهل الاختصاص في هذا الفن، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده في مبحث (لو) وفي تفرقته بين اسم الجنس وعلمه، وفي مبحث الصحة عند تعرضه لفائدة تقديم الخبر على المبتدأ .

وكذلك في كلامه على قولهم (لاغير) وأنه لحن ، وقد وقع فيه ابن مالك وأن الصواب عنده أن يقال" ليس غير" وذكره الوجوه في ذلك .

وأيضا في كلامه على اتحاد المبتدأ بالخبر(١) ، وفي غير ذلك من المباحث التي تعرض لها، فتراه يسوقها بدراية وعمق ، ولاغرابة في هذا فإن الأصولي لابد وأن تكون يده باسطة في علم النحو واللغة . لذلك كان الأصوليون نحاة بالدرجة الأولى ، فإنهم شديدو الاعتناء بألفاظ الكلام ومعانيه على حد سواء، ومالم يكن المرء ريان من علم النحو فلن يتمكن من الاستقلال بالنظر في أمور الشرع.

---

(١) انظر هذه المباحث ص ٧٢، ١٢٢، ٢٥٢، ٢٢٧، ٤٦٢، وانظر كذلك الطبقات ٩ / ٢٨٠ ومابعدها

المبحث السابع

ابن السبكي الأديب

الأدب سمة حميدة من سمات العلماء المبرزين ، وصفة فضل يودها كثير من الناظرين ، ولكنه صعب المراس لا يسلس قياده لكل طالب ، بل لا يلين إلا لمن وطن عليه العزم ، وكد فيه ذهنه وشعوره ، واشتغل به ليله ونهاره ، وألح في تحصيله وتذوقه ، واستوثق من علومه ، وكان ذا ملكة مواتية ، وقريحة مطاوعة ، واسع الخيال مرهف الحس ، ذا ثراء لغوي وفكر لماح . .

وقد كان التاج السبكي رحمه الله رجلا من هذا الطراز ، درس الأدب وهو صغير على كبار مشايخ عصره فتلقفه بنفس طروب وعقل رغوب ، حتى ربت لديه الملكة الأدبية واستقامت ، واصبحت سجية من سجاياه وظهرت آثارها في نظمه ونثره ، فوجد له الشعر الرائق ، والنثر الفائق ، ومن نظر ما دار بينه وبين معاصره الأديب الصلاح الصفدي ، من المراسلات الأدبية البليغة والأشعار الرقيقة علم أنه رحمه الله قد كان ممن تخضع له رقاب البلغاء ، وتجرى في مضماره سوابق الأدباء[1] ، وبالجملة فمن تصفح كتابه (الطبقات) عرف كيف أن له نظرات ثاقبة نافذة ، في اختيار كلمة دون كلمة أو تفضيل شاعر على شاعر ، أو أسلوب على أسلوب .

وهذه بعض الأمثلة نسوقها لتوضيح الصورة :

ذكر في ترجمة الشيخ تاج الدين المراكشي المتوفى (٧٥٢) هـ أنه دخل إليه مرة وهو ينشد قول ابن بقي :

حتى إذا مالت به سنة الكرى . . زحزحته شيئا وكان معا نقي

أبعدته عن أضلع تشتاقه . . كي لا ينام على وساد خافقي

---

(١) راجع الطبقات ١٠ / ٦ ومابعدها ، وانظر كذلك مراسلاته مع ابراهيم القيراطي ٩ / ٣١٤ ومابعدها .

وقول الحكم ابن عقال :

إن كان لا بد من رقـــاد .. فأضلعي هاك عن وســـــاد

فنم على خفقهـــا هـدوءا .. كالطفل فى نهنه المهـــــاد

وهو ومن عنده يقولون إن قول الحكم أجدر بالصواب، فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبه . .

قال التاج : قلت :" إن ابن بقي وإن أساء لفظا حيث قـــــال : (أبعدته) ، فقد أحسن معنى لأنه وصف أضلعه بالخفقان و الاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب النوم عليها، فقدم مصلحته على مصلحة نفسه، وأبعـده عما يقلقه ولو قال :" أبعدت عنه أضلعا تشتاقه " لأحسن لفظا كما أحســـن معنى، وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل وهذا نقص" (١) .

وذكر فى موضع آخر قول الشاعر : (٢)

يامن وفيت له العهود وما وفى .. أصفيته منى الوداد وما صفـــا

قابلت محض مودتي بقطيعـــة .. وهجرتنى طبعا وزدت تكلفـــا

ثم ذيله بقوله : لقد شعر جيداً وما أرق قوله (وهجرتنى طبعا وزدت تكلفا)

وأورد قصيدة القاضى الجرجاني التى يقول فيها : (٣)

يقولون لي فيك انقباض وإنما .. رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم . . ومن أكرمته عزة النفس أكرمـــا

إلى قوله :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم . . ولو عظموه فى القلوب لعُظمـــا

---

(١) انظر الطبقات ٩ / ١٤٨ .

(٢) طبقات ٦ / ٥٨ .

(٣) راجع الطبقات ٣ / ٤٦٠ ، معيد النعم ص ٧٠ .

ولكن أهانوه فهان ودنسوا .. محياه بالأطماع حتى تجهما

فقال : لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه، وما أعلى على هام الجوزاء موضعه، وما أنفعه لو سمعه من سمعه، وهكذا فليكن وإلا فلا أدب كل فقيه، ولمثل هذا النظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبيه. ثم قال :

وأنا أقرأ قوله (لعَظما) بفتح العين فإن العلم إذا عظم يعظم، وهو في نفسه عظيم، ولهذا أقول :" ولكن أهانوه فهانوا " ولكن الرواية فهَان و(لعُظما) بضم العين والأحسن ما أشرت إليه "(١) .

إلى غير ذلك من الأمثلة، فلا نطيل، ومن أراد المزيد فدونه الطبقات المذكورة، يجد فيها مايشفى غليله .

---

(١) وانظر كلامه فى الطبقات ٧ / ٩ على قول الحافظ أبى طاهر السلفى فى مدح ابن السمعاني :

هو المزني إبان الفتاوى .. وفى علم الحديث الترمذى

وحافظ عصره فى النثر صدقا .. وفى وقت التشاعر بحترى

وفى النحو الخليل بلا خلاف .. وفي حفظ اللغات الأصمعى

قال التاج : ودت لو قال :" وفى الشعر الأديب البحترى" وسلم من لفظ التشاعر ومن تنكير البحترى .

المبحث الثامن

ابن السبكي الشاعر

يعد التاج السبكى رحمه الله من الشعراء المجيدين الذين تهز قصائدهم وجدان السامعين ، رغم أنه إنما اشتهر بالفقه والأصول وغالبا مايكون شعر الفقهاء أدنى صدوحا من غيره وأقل خلبا للألباب . . . لأن الفقهاء يعتمدون الحقائق المجردة ، ولا يجنحون إلي الخيال الجامح والمبالغة الزائدة،كما يفعل الشعراء الآخرون الذين يقولون . :

" أعذب الشعر أكذبه "(١)

لكنا نجد التاج السبكي رحمه الله فى شعره وسطا بين الفريقين ، حيث يسمو شعره فى السبك والصناعة والتصوير إلى مصاف الشعراء المعدودين ، مع التزامه بالحقيقة ، وعدم خروجه إلى الإيغال غيرالمقبول ؛ فيصدق عليه قول الأرجائى : (٢)

أنا أشعر الفقهاء غيرمدافع . . فى العصر أو أنا أفقه الشعراء

شعرى إذا ماقلت دونه الورى . . بالطبع لا بتكلف الإلقاء

وتظهر وسطيته فى هذا النموذج من شعره :

قال رحمه الله من قصيدة يرثى بها والده الشيخ الامام . . (٣)

---

(١) هذه المقولة غيرمسلمة بل الصواب عكسها : وهو "أعذب الشعر أصدقه " كماقال الشاعر :

وإن أشعر بيت أنت قائله . . بيت يقال إذا أنشدته صدقا

(٢) راجع الطبقات ٦ / ٥٥ .

(٣) انظر القصيدة فى الطبقات ١٠ / ٣٣٦ ، وانظر كذلك مرثيته الطنانة فى شيخه الذهبى ٩ / ١٠٩ .

هـى المنية للأرواح تخـــــترم ... وهي الحوادث أمضى أمرها القـدم
وهي السهام نصبنا نحوها غرضـا ... تُصمَى بها وتُشاك العرب والعجـم
وهو القضاء من الرحمن يحمـده ... حمدا كثيراً عليها لحاذق الفهـم
ياقلب صبرا وإن روعت واحـدةً ... يزيد قلبى نارا سيلُهـا العـرم
ويمنع الشمس عن كل الأنـام فـلا ... يرون نورا ولا والله لم ينمـوا
وكيف لا وعلى مات وهو علـى ... هدى به هديت من غيها الأمـم
حبرالأنـام وشيخ ا لمسلمين ومـن ... جرى بذاك له فيما مضى القلـم
والطيف منها يزور الساهرين بكـا ... أولئك القوم من لذاتهم حرمـوا
ياسائرين إلى مصر لقد قعـدت ... حشو الحشا هذه النيران تضطـرم
وكان فكرى لا زلت به قـدم ... مخيلا كل يوم أ نهـم قدمـوا
فجاءنا خبر أ صمى مسامعنـا ... وشر مايسمع الإنسـان مايصـم
ماجأنى بعده طيف أ لذ بـه ... كلا ولم تحل لما مر لي النعـم
يا أيها الموت مهلا فى تفرقنـا ... فيم ا لتعجل أقصى بيننا أمـم
ها قد ظفرت بفرد لا نظير لـه ... إلا أناس قليل قد أخذتهـم
أهكذا الموت يأتى أيما رجـل ... تكاد تحى به فى رمسها الرمـم
أهكذا الموت يأتى أيما أسـد ... ما إن يغالب والأبطال تزدحـم
أهكذا الموت يأتى أيما جبـل ... يدكه أم جبال الدين تنهـدم
نعم كذا يقبض الله العلوم كمـا ... قال النبى مقالا ليس ينخـرم
العلم بالعلماء الله يقبضـه ... لا تختلى أبدا منه صدورهـم
مات الإمام الذى يعلو السماك علا ... مات التقى النقى الطاهر العلـم(١)
ماتالذى تعرف البطحاء وطأ تـه ... والبيت يعرفه والحل والحـرم
مات الذى لم يكن يومـا لينكـره ... ركن الحطيم إذا ماجـاء يستلـم

---

(١) هذا البيت واللذان بعده من شعر الفرزدق راجع الطبقات ١ / ٢٩١

مات الذى كان فى هذا الزمان لنا ... كالشمس ينجاب عن إشرقها القتم

مات الخدوم لرب العالمين و من ... فى عصره كل مخدوم له خدم

كلتا يديه غياثعم نفعهما ... يُستوكفان ولا يعروهما العدم

سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنان حسن الخلق والكرم

يغضِى حياءً ويغضَى من مهابته ... فلا يكلَّم إلا حين يبتسم (١)

رب المقال فصيح لفظه عجب ... قد ضمن الدر إلا أنه كلم

مجرد العزم للعلياء ينشده ... ما أقرب العز إلا أنها قِسم

ذو همة بلغت نحو السماك به ... تبارك الله ماذا تبلغ الهمم

ياذاهبا كلما مثلته وقفت ... بى همة وجرى من ناظرى دم

وظل قلبى ذا نار تشب لظى ... وراح خدى بأيدى الدمع يلتطم

ورحت حيران لا أُدرى الطريق ولا ... كيف القرار لأمر كله سقم

سقى السحاب ثرى أمسيت ساكنه ... من الرحيم يروى عنده الرحم

قد كنت بحر علوم طاب مورده ... وكنت حبراً به الأحبار قد ختموا

---

(١) هذا البيت واللذان قبله من شعر الفرزدق أيضا كما ذكره فى الطبقات ١ / ٢٩٢ وللمصنف أيضا نظم سلسس رائع وانظر قوله فى الطبقات ٩ / ١٣٥ ملغزا

من باتفاق جميع الخلق أفضل من . . شيخ الصحاب أبى بكر ومن عمر ومن على ومن عثمان وهو فتى . . من أمة للمصطفى المبعوث من مضر

إلى آخر القصيدة وهى طويلة ذكر منها فى الطبقات أربعة وعشرين بيتا، وقد شرحها السيوطى بكتاب سماه" الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية " والمراد بالأفضل هنا عيسى عليه السلام فإنه أفضل من جميع الصحابة رضى الله عنهم لأنه نبى ، وأصل هذا اللغز للذهبى قال التاج : قال لى شيخنا الذهبى مرة : من فى الأمة أفضل من أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالاجماع؟ فقلت يفيدنا الشيخ :فقال عيسى بن مريم عليه السلام فإنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ينزل آخر الزمان ويحكم بهذه الشريعة ، وانظر أيضا قصيدته النونية التى نظمها فى مسائل العقائد ، ٣ / ٣٧٩ ومابعدها .

إلى أخر القصيدة : وهى ملحمةرائعة كما ترى نكتفى بهذا القدر منها .

وانظر كيف يدخل ضمنها بعض أبيات الشاعر الفرزدق التى يمدح فيها على بن الحسين رضى الله عنه فلا تكاد تميزها بين أبياته بل ترى القصيدة وكأنها من مشكاة واحدة .

المبحث التاسع

ابن السبكي المصلح الاجتماعي

يقع التاج السبكي رحمه الله في الصفوف الأُولى بين المصلحين الاجتماعيين، فهو رجل دولة وقضاء، وسياسة وعلم وحلم وكياسة، وصفح وصبر، وخلق قويم.

خبر مجتمعات عصره وتغلغل في أحشائها وتقلب في طبقاتها صعودا وانحدارا، فنصح وأرشد، وعلم وخطب، وأصلح وحكم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأثر في طبقات الناس على مختلف المستويات في عصره، فأكرمه جمهورهم وناصروه، واستمعوا إليه وأطاعوه، والتفوا حوله وآزروه، وناوأه بعضهم، فوقفوا في طريقه وناصبوه العداء، كشأن المصلحين في كل المجتمعات "فلا بد من مثن عليك وقالى" .(١)

وغالبا ما كان شانئوه من ذوى السلطة والنفوذ، والمصالح والأهواء، الذين كانت تلهبهم سياطه الإصلاحية، وتقض مضاجعهم سيرته الجهادية، المؤثرة، ولقد كان رحمه الله يمتاز بسعة في الأفق، وقوة في الإرادة، وجرأة في الحق، وصرامة في دين الله، لا ترهبه سطوة ظالم، ولا يخشى في الله لومة لائم، وكان خبيرا بأدواء عصره ومشاكله، فنجده يتعرض لكثير من الأمور السائدة في زمانه والتى قد تخفى على الكثير فينقدها نقدا مرا لاذعا، بأسلوب بليغ وعبارات قوية، تكشف لنا عن غَيْرته العلمية الجادة، ونظرته الاصلاحية الشاملة، وتدل على

---

(١) هذا من شعر الحافظ المنذرى رحمه الله حيث يقول :

إعمل لنفسك صالحا لا تحتفل .. بظهور قيل في الأنام وقال

فالخلق لا يرجى اجتماع قلوبهم .. لا بد من مثن عليك وقالى

انظر الطبقات ٨/ ٢٦١ .

أصالة فى التفكير، وعمق فى الرأى، وغزارة فى العلم ، وإدراك شامل لأحداث مجتمعه .

وسنعرض هنا لبعض القضايا التى تناولها بالنقد والاصلاح فى كتابه (معيد النعم)[1] وهو الكتاب الذى يعد نقطة تحول فى حياة التاج السبكى من عالم ومدرس وقاض إلى ناقد مصلح، من طراز فريد، وقد أخرجه للناس فى أواخر حياته رحمه الله، وتعرض فيه لطبقات الأمة على كافة المستويات ابتداء بالسلطان فى قمة حكمه، وانتهاء بالفلاح فى قاع حقله .

وإليك بعض هذه المواقف . . . .

---

(١) اسمه (معيد النعم ومبيد النقم) وهو كتاب فريد، فيما تضمنه من الفوائد والنصائح والعلوم تبدى منه رجاحة عقل مؤلفه وسعة فكره - وشجاعته وجرأته فى الصدع بالحق، ونقده المر المكشوف لرجال الدولة على اختلاف مراتبهم، فى زمن كانت الحكومة فيه لا تتحرج من التنكيل بالناس، لكنها النفوس الكبيرة لا تبالي بالأخطار والمصاعب. وإذا كانت النفوس كبارا . . تعبت فى مرادها الأجسام

أولا : موقفه مع السلطان :

ويتمثل هذا الموقف فى حث السلطان على إقامة فرض الجهاد والعدل بين الناس وحماية بيت مال المسلمين ، وعدم التفريط فى أى من هذه الأمور ، كمايلى :

١) إقامة فرض الجهاد :

قال رحمه الله " إن الله تعالى لم يول السلطان على المسلمين ليكون رئيسا عليهم آكلا شاربا مستريحا ، بل لينصر دين الله ويعلى الكلمة ويقيم فرض الجهاد ، . فلا يدع الكفار يكفرون أنعم الله ولا يؤمنون بالله ولا رسوله ، فإن تقاعد عن هذا الأمر وأخذ يظلم المسلمين ويأكل أموالهم بالباطل فاعلم أنه إلى زوال ، وأن عاقبته الخسران ، فإن كان هذا الملك شجاعا ناهضا ، فليرنا همته فى أعداء الله الكفار ، ويدع عنه أذية المسلمين "(١) .

٢) العدل بين الناس :

عن هذا المعنى يقول " إذا ولاك الله تعالى أمرا على الخلق ، فعليك البحث عن الرعية ، والعدل بينهم فى القضية ، والحكم فيهم بالسوية ، ومجانبة الهوى والميل ، وعدم سماع بعضهم فى بعض ، إلا أن يأتى بحجة مبينة ، وعدم الركون إلى الأسبق ، والميل إلى تصديقه ، فإن ذلك ظلم للخلق " ، ثم ينكر ميل الحكام إلى أول شاك من الناس ولو بغير حجة ظاهرة فيقول رحمه الله :" وقد اعتبرت كثيرا من الأتراك فوجدتهم يميلون إلى أول شاك وماذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم التى صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التى لم ترو بالماء فإذا أتاها ماء رويت سوأ كان ذلك الماء صافيا أم كدرا ، ثم إذا رويت وجاء ماء آخر صاف حسن لم تشربه ، وصار مائعا عليها ، فهذه هى القلوب

---

(١) انظر معيد النعم ص ١٢ .

الغافلة عن الحق . . " (١)

فانظر إلى هذا التشبيه البليغ ما أروعه ، وكأنى بأولئك الحكام يأنسون فى أول شاك إليهم حبه لهم، ورغبته فيهم أكثر من اللاحق، ولولا ذلك لما بادر إليهم قبل خصمه، فيكافوءنه بالميل إليه، أو أنهم لفرط جهلهم يظنون أن سبقه بالشكاية يدل على أنه مظلوم لا محالة .

٣) حماية بيت المال :

يذكر التاج رحمه الله أن من وظائف السلطان المهمة حماية بيت مال المسلمين والحدب عليه، والسير فيه على سنن الشرع ، وتصريف أمواله فى المصارف المستحقة فيقول : " إن على السلطان الفكرة فى العلماء والفقراء ، وسائر المستحقين وتنزيلهم منازلهم وكفايتهم من بيت المال الذى هو فى يده أمانة عنده ، ليس هو فيه إلا كواحد منهم ، ولدلوه نسبة دلاء المسلمين . فإن تعدى ذلك وصرفه فى شهواته ولذاته وأخذ يغدق الأموال على خواصه ومن يريد استمالة قلوبهم إليه لبقاء ملكه ، وأعجبه مدائح الشعراء لكرمه فذلك خرق لا يلومن معه إلا نفسه فإنه وبال على صاحبه .

ثم أورد حكاية عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، تبين مدى حفاظه على بيت مال المسلمين، فقال : " وقد كان بيت مال المسلمين فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يحصى كثرة وجاءه مع ذلك أعرابى يستمنحه فقال منشدا :

يا عمر الخير جزيت الجنة . . أكسى بنياتى وأمهنه

وكن لنا من الزمان جنة . . أقسم بالله لتفعلنه

فلم يرعه ترققه ولا قسمه عليه بل قال له فإن لم أفعل يكون ماذا؟ قال : " إذا

---

(١) انظر معيد النعم ص ١٣ .

أبا حفص لأذهبنه" فقال لهواذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنه .. يوم تكون الاعطيات هنة

وموقف المسئول بينهنه .. إما إلى نار وإما جنة

فلما ذكر له الجنة والنار والموقف بين يدى الجبار بكى رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته بدموعه ، وقال ياغلام اعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره ، أما والله لا أملك غيره ..

قال التاج : فانظره مع ماحصل عنده من الرقة لدينية ، لم يُنعِم إلا بما هو من خاصة ماله ، ولم يجد غير قميصه ، وقد كانت خزائن الأموال مملوءة بين يديه .

قال العلماء ولم يعطه من بيت المال وإن كان الأعرابى فقيرا مستحقا ، لأنه لما استنزله بشعره لم يكن العطاء لمصلحة المسلمين ، فلم يعطه من مالهم ، أو أنه لم يثبت عنده أن الأعرابى من جملة مصارف الصدقات ، فهذه سيرة أهل الحق والدين .

ثم قال ولسنا نطالب أهل زماننا بها فإنهم لا يصلون إلى هذا المقام ، ولكن نذكرهم لعلهم يرجعون ، أو يقصرون عما هم فيه ، فلابد فى الذكرى من نفع إن نشاء الله .." (١).

---

(١) معيد النعم ص ١٨ .

ثانيا : موقفه مع نواب السلطنة :

هؤلاء كانوا هم حلقة الوصل بين الناس والسلطان، فعن طريقهم تقضى مصالح الأمة، وهم الحكام الفعليون فى أمور الدولة والرعية ولهم القدرة على نصيحة السلطان وكف ظلمه عن الناس، لذلك كان عليهم من المهام ما على السلطان وزيادة .

وقد كان كثير منهم فى زمن التاج يخرج عن أحكام الشرع وسننه ، وآدابه ويحكم رأيه فى كثير من أمور الناس، لذلك نرى هذه الطائفة تختص بكثير من اهتمامه ونصائحه فى أمور شتى منها . :

١) القاء مقاليد الأحكام إلى الشرع :

يقول رحمه الله" إن عليهم إلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع لأنه لا حاكم إلا الله تعالى، ولن تفعل العقول شيئا (١) ولن تنفع السياسة فى شىء بل تضر البلاد والعباد وتوجب الهرج والمرج " .

ثم يؤكد على أن شريعة الله متكفلة بجميع مصالح الخلق فى معاشهم ومعادهم وأنه لا يأتى الفساد إلا من الخروج عنها ، فحق على كل مسلم الرضا بحكم الله والانقياد له ، ويدلل على هذا المعنى بقوله تعالى :" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا

---

(١) قال التاج رحمه الله : (وقد اعتبرت ولا ينبئك مثل . خبير، فلم أر ولم أجد من يظن أنه يصلح الدنيا بعقله ويدبر البلاد برأيه وسياسته ، ويتعدى حدود الله وزواجره إلا وكانت عاقبته وخيمة وأيامه منغصة متكدرة وعيشه قلقا مضطربا، وتفتح عليه أبواب الشرور من كل مكان ، ويتسع الخرق على الرقع، فلا يسد ثلمة إلا وتفتح عليه ثلمات ولا يرفع فتنة إلا وينشأ بعدها فتن كثيرة، وعلى مثله يصدق قول الشاعر :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا .. فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

مما قضيت ويسلموا تسليما "[1] فيقول :" أخبر سبحانه أننا إن لم نحكّم هذا النبى العظيم ثم إذا حكم لم نجد فى أنفسنا حرجا وضيقا وقلقا من حكمه ، بل نطمئن لهونسلم وننقاد ونذعن وإلا فنحن غير مؤمنين" .

ثم أضاف يقول :" فإن قال حمار من هؤلاء أنا من أين أعرف هذا وأنا عامى تركى لا أعرف كتابا ولا سنة ؟ قلنا له هذا لا ينفعك عند الله تعالى شيئا ، ألم يجعل لك عينين ولسانا وشفتين ، وهداك النجدين ، إذا كنت لا تعرف فاسأل أهل الذكر فإن هذا شأن من لا يعلم ، وإن عجزت عن الفهم فمالك وللدخول فى هذه الوظائف ، دعها وكن كما قيل :

إذا لم تستطع شيئا فدعه . . وجاوزه إلى ماتستطيع [2]

٢) قمع أهل البدع والأهواء :

يذكر التاج : أن من واجبات نواب السلطنة دفع أهل البدع والأهواء وكف شرهم عن الخلق ، وأنه لا يسعهم فى دين الله تعالى الصبر على من يسب الصحابة رضوان الله عليهم ويفسد عقائد أهل الإسلام .

ويؤكد بأن عليهم الغلظة على هؤلاء بحسب ماتقتضيه مصلحة الشرع [3] .

٣) شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم مرتد كافر لا تقبل توبته :

يقرر التاج رحمه الله أنه لا توبة لمن ينتقص من جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يسبه فإن ذلك مرتد كافر يجب سفك دمه . قال :" فعلى نائب السلطان القيام بهذا الأمر وقد ذهب إليه كثير من العلماء وهو اختيار

---

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

(٢) انظره ص ٤٢ .

(٣) انظره ص ٢٢ .

طوائف من المتأخرين، فإن كان الذى وقع منه هذا معروفا بسوء العقيـــدة أو وقع منه ما وقع على وجه فظيع ، تشهد القرائن فيه بالخبث الباطـــن، فأ رى أن لا تقبل توبته ويسفك دمه فورا .

قال : وهو رأى الشيخ تقي الدين ابن تيمية والشيخ الامام الوالد رحمهما الله تعالى . . (١)

راجـــع ص ٢٣ .

ثالثا : موقفـــه مع نظـراء الجيـش :

يذكر التاج أن ناظر الجيش عليه أن ينظر فى حالهم وأن يجـــرد من يرى فيه المصلحة والكفاية والقدرة من الجند .

ولا يجوز له أن يجهز عاجزا لفقر أو غيره ، بل عليه الدفع عنه بمـــا يمكنه فإنه ناظر عليه كناظر اليتيم (١)

١) الفلاح حر لا يد لآدمى عليه :

يقرر التاج رحمه الله أن الفلاح أمير نفسه فيما يختاره فـــى أرضه ومعيشته ، ويشدد النكير على من يلزمه بالفلاحة قسرا ، ويرى أن ذلك لا يجـوز فعله ، وأن البلاد تعمر بدون ذلك ، فيقول :" ومن قبيح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين فى الاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمى عليه " .

قال" وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنـــين يمسك ويعاد إلى القرية قهرا ، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال فى غير الشـــام أشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده لأن فيه تضييقا على الناس لا ضـــرورة إليه " (٢)

٢) الديوان لا شـــرع لـــه :

يقول التاج رحمه الله :" ومن قبائح هؤلاء النظراء أنهم إذا اعتمدوا

---

(١) ثم يقرر أن على ضباط الجيش وأمراء الأجناد تفقد حال الأجنـــاد وتعليمهم الرمي ، والمسابقة على الخيل ، بحيث يعرفون الطعـــان والضرب والحرب ، وللأمير أن يحثهم على المناضلة والكر والشد ، وكـل مايلزم للقتال ويبنى الأجسام ، وعلى الأمير إذا سار بالجيش الرفق بهم وتفقد خيولهم وتقوية قلوبهم و السير على سير أضعفهم و أن يعطى الجندى سلب الكافر الذى يقتله ولا يمنع منه ، فإن الجندى يقاتل ويخاطر بنفسه فإذا عرف أنه لا ينصف فترت عزيمته وخارت قواه" راجع ذلك ص ٤٧ .

(٢) انظره ص ٣٤ .

شيئا مما جرت به عوائدهم القبيحة يقولون هذا شرع الديوان والديوان لا شرع له ، بل الشرع لله تعالى ولرسوله صلى اللهعليه وسلم ، فهذا الكلام ينتهى إلى الكفر.

وإن لم تنشرح النفس لتكفير قائله فلا أقل من ضربه بالسياط ليكف لسانه عن هذا التعظيم الذى هو فى غنية عنه ، بأن يقول مثلا عادة الديوان كذا أو طريقته كذا أو نحو ذلك من الألفاظ التى لا تنكر[1] .

---

(١) المصدر نفسه والصفحة .

رابعـا : موقفـه مع من يتولون أمر أهل الجرائم :

هـذه الطائفةهى التى عليهـا محاسبة الجناة ومراقبة أحوال الناس ولكن ضمن إطار الشرع وقد كانت تخرج عن هـذا الإطار فى أمور،منهـا :

١) التجسس على الناس :

يذكرالتاج رحمه اللهأن من حق من يوكل إليهأمر أهل الجرائمالفحص عن المنكرات وسد الذريعة فيه،و الستر على منستره الله تعالى من أربـــاب المعاصى، وإقالة ذوى الهيئات عثراتهم ، ثم يقول : " وليس له أن يتجســس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر،ولا أن يكبس عليهم بيوتهم بمجرد القيل والقال ،إلى قوله :" وما يفعله الولاة اليوم من إخراج القوم من بيوتهم وإرعابهم وإزعاجهم وهتيكتهم، كل ذلكمن تعدى حدود الله تعالى :"ومن يتعـــد حدود الله فقد ظلم نفسه " (١) .

ثم قال" ومن الولاة من يتجاوز فى الضرب المقادير ويتنوع فى إيصال الألام لمن يعاقبه بمجرد التهمة والظن ،أفما علم هذاالفاجر أن ضرب بـرىء أصعب عند الله تعالى من تخلية ذى جريمة " ؟ إلى آخر كلامه فى هذاالمعنى (٢) .

٢) من زنـا بامـرأة زوجوه إياهـا :

قال التاج رحمه الله :" ومن أحكام الولاة الفاسدة أنه إذا رفع إليهم من أزال بكارة امرأة أمروه بزواجها ،وكذلك إذا أحبلها،ظنا منهم أ ن ذلـــك خير من هتيكة الزنا وضياع الولد بلا نسب،وهذا خلاف دين الله تعالى ،فإن ولد الزنا لا يلحق بالزانى ، ولا يكون ابنا له ولا يرثه فيفعلون حراما يستمر أبـــد الأباد،و هو جعل ولد الزنا ابنا يرث الزانى إلى غير ذلكمن أحكام الأبناء" (٣)

---

(١) سورة الطلاق الاية رقم (١)
(٢) انظره ص ٤٥ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة .

خامسا : موقفه مع القضاة :

كان كثير من القضاة في زمنا لتاج لا يتورعون عن قبول الهدايا والسعي في طلب القضاء بأي ثمن، فوقف من هؤلاء موقفا حازما وشدد النكير عليهم جدا فقال رحمه الله عند ذكره لأخبار هذه الطائفة :

" ومن أقبح مايرتكبه القضاة قبولهم للهدايا فيحرم على القاضي قبول هدية من يهدي له ليستميل خاطره لقضاء أربه وهذا يشمل كل من قد يحتاج إلى القاضي ممن هو فوقه أو مثله أو دونه " .

وقال عمن يدعي منهم الإكراه على القضاء : " ومن هؤلاء من يقول : أكرهت على القضاء وأنا لم أر إلى الآن من أكره على القضاء الإكراه الحقيقي ، وقد ضرب جماعة من السلف على أن يلوا القضاء فأبوا وما ذاك إلا لأنهم يخشون ألا يقيموا فيه الحق لفساد الزمان، وإلا فالقضاء إذا أمكن فيه نصر الحق من أعظم القربات ، ولكن أين نصر الحق ؟ وهم لا يدخلون فيه إلا بالسعي وربما بذلوا عليه الذهب (١) .

إلى أن يقول : وكأني بأحمق من الفقهاء يقول تعين علي طلب القضاء وأنا لا يخفى علي ماقاله الفقهاء فيمن يتعين عليه ذلك ، ولكن من ذا الذي يتعين عليه ؟ فقائل هذا الكلام إما ممن لبست عليه نفسه واستنزله الشيطان من حيث لا يدري ، أو ممن يريد التلبيس على الناس ، فهو إبليس من الأبالسة نعوذ بالله منه .

ومافعلت هذه الطائفة ولا كان ثمرة علمها إلا أن جعلت العلم حطام الدنيا ثم أخذت تداجي في دين الله تعالى وتلبس على الخلق وتأكل الدنيا بالدين فقبحها الله من طائفة . . "

---

(١) انظره ص ٥ - ٦٩ وقد أنشد بعضهم في أحد هؤلاء الذين يتولون المناصب بالأموال فقال :

فلان لا تحزن إذا نكبت واعرف ما السبب
فما تولى حاكم بفضة إلا ذهب

انظر ذلك ص ٧٣ .

سادسا : موقفه من طوائف العلماء :

العلماء فرق كثيرة ، منهم المفسر، والمحدث، والفقيه، والأصولي، والمتكلم ، والنحوى وغيرهم ويستوون فى أن عليهم إرشاد المتعلمين وإفتاء المستفتين ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين .

وألا يقصدوا بالعلم الرياء، والسمعة، والمباهاة ، ولا جعله سبيلا إلى الدنيا فإن الدنيا أقل من ذلك .

قال التاج رحمه الله :" وحق الحق إنى لأعجب من عالم يجعل علمه سبيلا إلى حطام الدنيا، وهو يرى كثيرا من الجهال وصلوا من الدنيا إلى مالا ينتهى هو إليه . فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل فما بالنا نشتريها بأنفس الأشياء وهو العلم ؟، فينبغى أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقى إلى جوار الملاء الأعلى .

ثم قال : والكلام فى العلماء وما ينبغى لهم يطول ولكننا ننبه على مهمات :

١) تردد بعض العلماء الى أبواب السلاطين :

قال التاج رحمه الله : من العلماء من يطلب العلو فى الدنيا والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء وحب المناصب والجاه فيؤدى ذلك إلى أن قلبه يصدأ ويظلم بهذه الأكدار ويبعد عن علام الغيوب ، وإلى أنه يشتغل بهم وبها عن الازدياد فى العلم ، فكم رأينا فقيها تردد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه ونسى ما كان يعلمه "(١)

---

(١) كما يؤدى ذلك إلى فساد عقيدة الأمراء فى العلماء فإنهم يستحقرون المتردد إليهم ، قال التاج :" ولا يزالون يعظمون الفقيه حتى يسألهم فى حوائجه . ويؤدى ذلك إلى أنهم يظنون فى أهل العلم السوء ولا يطيعونهم فيما يفتون به وينقصون العلم وأهله وذلك فساد عظيم وفيه هلاك للعالم . " انظر ذلك ص ٦٨ - ٧٤ .

٢) تعصب العلماء فى الفروع :

قال رحمه الله : ومن العلماء من تأخذه فى الفروع الحمية لبعض المذاهب ، فيركب الصعب والذلول فى العصبية لها . . ولقد رأيت فى طوائف المذاهب من يبالغ فى التعصب بحيث يمنع بعضهم من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره ، وياويح هؤلاء أين هم من الله تعالى ، ولو أن الأئمة الأربعة أحياء يرزقون لشددوا عليهم النكير وتبرؤا منهم فيما يفعلون " .

٣) التلفيق بين المذاهب :

قال التاج رحمه الله وهو يتحدث عن المفتين ويعيب على طائفة منهم تتبع الرخص فى المذاهب لافتاء الأمراء . . قال : " إن منهم من يسهل أمر الشرع ويرخص لبعض الأمراء مالم يرخص فيه لعموم الخلق ، ويفتى ببعض مالا يعتقده من المذاهب(١) .

فيقول مثلا : لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر لا ينتقض عند أبى حنيفة ، وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل حلال عند الشافعي ، وعن مجاوزة الحد فى التعزير جائز عند مالك ، وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ولم يكن له مايعمر به حلال عند أحمد بن حنبل ، وهكذا . .

---

(١) وهناك طائفة تصلبت فى أمر دينها ، قال التاج : " فجزاها الله تعالى خيرا تنكر المنكر وتشدد فيه وتأخذ بالأغلظ وتتوقى مظان التهم غير أنها تبالغ فلا تذكر لضعفة الإيمان من الأمراء والعوام إلا أغلظ المذاهب ، فيؤدى ذلك إلى عدم انقيادهم وسرعة نفورهم .
قال : فمن حق هذه الطائفة الملاطفة وتسهيل مافى تسهيله فائدة لمثل هؤلاء إلى الخير ، إذا كان الشرع قد جعل لتسهيله طريقا ، كما أن من حقها التشديد فيما ترى أن فى تسهيله مايؤدى إلى ارتكاب شيء من محرمات الله تعالى " ، راجع معيد النعم ص ٢ . ١ ومابعدها .

فياليت شعرى بأى مذهب أفتى هذا المفتى ؟ وعلى أى طريقة جرى ؟ فلقد ركب لنفسه بمجموع هذه الأمور مذهبا لم يقله أحد .

وهذا من علامات الاستهانه بدين الله تعالى نعوذ بالله من الخذلان ،وما هذا المفتى إلا ضال خارق لحجاب الهيبة ،مفسد لنظام الدين ، نسأل الله السلامة " .

هذا غيض من فيض مما احتواه كتابه القيم (معيد النعم) نكتفي بهذا القدر الذى أوردناه منه ومن أراد المزيد فليرجع إليه يجد فيه بغيته .

الفصـــل الخامـــس :

فى الاعمال العلمية والمناصب التى شغلها فى حياته

ويتضمن مبحثين

المبحث الأول : فى الافتاء والتدريس

المبحث الثانى : فى توليه منصب القضاء والخطابة

المبحث الأول

في الافتاء والتدريس

لقد ظهر النبوغ العلمي للتاج السبكى مبكراً فكان وهو فى ريعان شبابه آية خارقة فى الحفظ والاتقان و الدراية وسعة العلم وفصاحة اللسان . قال ابن حجر :" أمعن فى طلب الحديث وكتب الأجزاء والطباق، ولازم الاشتغال بالفقه والأصول، والعربية حتى مهر وهو شاب، وأذن له ابن ا لنقيب بالافتاء والتدريس وهو لم يكمل العشرين" (١) .

ونظرا لنبوغه المبكر فقد كان مشايخه ينزلونه للتدريس فى مدارسهم الشهيرة، وكان والده كثيرا ما يصرفه عن ذلك لصغر سنه ووجود مشايخ كبار بجانبه ، ذكر فى الطبقات : أن شيخه الذهبى نزل له فى حياته عن مشيخة دار الحديث الظاهرية فلم يمض والده الشيخ الإمام ذلك النزول، وقال له " والله يابنى أعرف أنك مستحقها ولكن ثم مشايخ هم أولى منك، لطعنهم فى السن" .

قال التاج : ثم لما حضرت الوفاة شيخنا الذهبى أشهد على نفسه بأنه نزل لى عنها فوالله لم يمضها لى الوالد ، وها خطه عندى يقول فيه بعد أن ذكر وفاة الذهبى، وقد نزل لولدى عبد الوهاب عن مشيخة الظاهرية وأنا أعرف استحقاقه، ولكن سن الشباب منعنى أن أمضى النزول له " ثم قال عن والده " ولما نزل لى عن مشيخة دار الحديث الأشرفية كان يقول : ما أعلم أحدا يصلح لمشيخة دار الحديث غير ولدى عبد الوهاب وشخص آخر غائب عن دمشق وأكثر الناس لم يفهم الغائب وأنا أعرف أنه الشيخ صلاح الدين العلائى

---

(١) انظر الدرر الكامنه ٢/ ٤٢٦ ، لأن عمره لما مات شيخه ابن النقيب كان حوالى ثمانية عشر عاما إذ مات شيخه المذكور (٧٤٥) انظر الطبقات ٩/ ٣٠٧ .

شيخ بيت المقدس وحافظه [١] ، وقد زاول أعمال التدريس والإفتاء بكثرة في دمشق التي قضى فيها معظم حياته وفيها انصقلت مواهبه العلمية، وبرزت شخصيته الفذة في شتى الفنون، حتى غدا إماما مرموقا وحبرا لا يجارى . . . . وظل مفتي الشام بعد وفاة والده سنة ٧٥٦هـ إلى أن توفي سنة ٧٧١ هـ ثم في مصر أثناء تواجده فيها عام ٧٦٣هـ بعد أن عزل عن قضاء دمشق في المرة الثانية واستمر فيها قرابة سنة كاملة على أعمال أخيه بهاء الدين ، فتولى فيها إفتاء دار العدل وتدريس الشافعي والشيخونية، والميعاد بالجامع الطولوني وغير ذلك [٢] .

و أما في دمشق فقد تولى التدريس في كبريات مدارسها كالعزيزية والناصرية والعذراوية والغزالية والأمينية والشاميتين والعادلية الكبرى ومشيخة دار الحديث الأشرفية وغير ذلك [٣]

قال في الأشباه والنظائر : " وأما دمشق فما فيها مدرسة مرموقة بعين التعظيم إلا وقد وليت تدريسها بحمدا لله إلا اليسير من المدارس" [٤] .

---

(١) راجع الطبقات ١٠ / ٢٠٩ ومابعدها .

(٢) انظر الدارس في تاريخ المدارس ١ / ٣٧ .

(٣) راجع الثغر البسام ص ١٠٣ البدر الطالع ١ / ٤١٠ ، البداية والنهاية ١٤ / ٢٦٤ النجوم الزاهرة ١١ / ١٠٨ ، شذرات الذهب ٦ / ١٨٠ .

(٤) انظر الكتاب المذكور ورقة ٢١٧ .

المبحث الثاني

توليه منصب القضاء والخطابة

تولى تاج الدين قضاء القضاة فى الشام بطلب من والده فى أواخر أيامه سنة ٧٥٦هـ .

قال التاج :" وكان الوالد يقول لي أيام مرضه قبل أن يحصل لى القضاء . . إياك ثم إياك أن تطلب القضاء بقلبك فضلا عن قاليك ، فأنا أطلبه لك لعلمى بالمصلحة فى ولايتك ، لك ولقومك وللناس ، وأما أنت فاحذر لئلا يكلك الله إليه " .

وقد تولى رحمه الله إلى جانب القضاء الخطابة بالجامع الأموى بدمشق فاستمر فى عز ورفعة بيده القضاء والخطابة وما أضيف إليهما واتفق له من العظمة فى ولاية القضاء مالم يتفق لقاض قبله ونال المزيد من السعد مع حسن الشهرة ونفاذ الكلمة وطيب الذكر والورع البالغ .

قال ابن حجر:" وانتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام . . "(١) وكان قد باشر القضاء بهمة وصرامة وعفة لا يلين لغير الحق ، ولا يكترث بالمؤثرات ، لذلك لاقى من جرائه المحن والشدائد ، فصمد وقاوم وكان فى غاية الثبات ، واستمر فى منصب القضاء إلى أن مات سنة ٧٧١هـ مع استثناء الفترات التى عزل فيها وهى ثلاث فمدة ولايته قضاء الشام تقرب من خمسة عشر عاما ، قضاها كلها فى إقامة العدل والثبات على الحق والازدياد من العلم والتأليف وفيها بدت شخصيته واستقلاله برأيه ، واعتداده بنفسه فتراه مثلا يقول فى ورقة كتبها إلى نائب الشام " وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الاطلاق لا يقدر أحد يرد على هذه الكلمة . . " قال السيوطى وهو مقبول فيما قاله عن نفسه (٢) .

---

(١) الدرر الكامنه ٢ / ٤٢٦ .

(٢) انظر حسن المحاضرة ١ / ٣٢٨ .

الفصـــل الســـادس :

في موقفـــه من خصومـــــه

والكلام على عزله عن القضاء وسجنه

وفيه تمهيد وثلاثة مبا حـــث :

المبحث الأول : في محنتـــه الأولى

المبحث الثاني : في محنتـــه الثانية

المبحث الثالث : في محنته الأخـــيرة

تمهيـــــــــــد

الناس العظماء ذوو الهمم العالية والامجاد السامقة لا يتركهم الزمان يمخرون عبابه بسلام، ويشقون طريقهم معه فى صفاء ووئام، بل يقف لهـــــم بالمرصاد ويصدهم بكل عنف وعناد .

ليس الزمان وإن حرصت مسالما . . طبع الزمان عداوة الأحـــــرار

نعم هذه طباع الأيام، وهذا ديدنها فى الناس، فمن طلب زمانـــا صافيا عن الأقذاء والاكدار فقد حاول مايند عن الامكان .

ومن رام فى الدنيا حياة خلية . . من الهم والأكدار رام محـــــالا (١)

وتختلف عوائق الزمان ومحنه من شخص إلى آخر فكلماكان الانســـان أمثل وأكمل كان نصيبه من المحن والرزايا أكثر وأوفر" أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل" (٢) .

وقد كان التاج السبكي رحمه الله من هؤلاء الكملة الأماثل فيمـــــا أحسب فلا عجب أن ينال من سهام الدهر ماتنوء بحمله الجبال

وإذا كانت النفوس كبـــارا . . تعبت فى مرادها الأجســـــام

وقد تعب التاج رحمه الله كثيرا وعانى من دهره الشدائد ، وهـــذا ابن كثير رحمه الله يصورلنا مقدار معاناته وتعبه فيقول :" لقد جرى عليه من المحن والشدائد مالم يجر على قاض قبله وحصل له من المناصب والرئاسة مالم يحصل لأحد قبله وانتهت إليه الرئاسة بالشام " (٣) .

---

(١) وإذا رجوت المستحيل فإنمـا . . تبنى الرجاء على شفير هـار
ومكلف الأيام ضد طباعهـــا . . متطلب فى الماء جذوة نـــار

(٢) رواه البخارى بلفظ:"أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأول فالأول" ٤ / ٣

(٣) ذكره عنه ابن حجر فى الدرر ٢ / ٣٢٨ ولم أجده فى المطبوع من ابـن كثير إذ تقف حوادثه على سنة ٧٦٧هـ.

وقد كان فضل اللهعليه وماحباه به من مجد وسناء مبعث مالاقاه من المحن والأنكاد ، فى حياته رحمه الله ، فقد حسده معاصروه على هـــذه المنزلة الرفيعة وتربصوا به الدوائر فتألبوا عليه واجتمعوا على مشاققتـــه ومناوأته بكل ما استطاعوه وما لم يستطيعوه :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه . . فالكل أعداء لـــه وخصـــوم

فكان هؤلاء النظراء ينفسون عليه نجابته وعلو قدره وارتفاع شأنه وكان منهم من يطمح إلى مناصبه ويغمطه عليها ، ويبغى لـه الغوائل ، علـــه أن يخلفه فيها وينعم بخيراتها ويستولى على ما حازه من غنائم المعالى ورفيـــع الدرجات .

لذلك انعطفوا نحوه وبثوا حوله الأراجيف وكانت له معهم صـــولات وجولات ، أدت إلى عزله عن قضاء الشام مرات عديدة وأصيب من جراء القضـــاء بمحن متتالية نجملها فى الآتى :

المبحث الأول

في محنته الأولى

قال ابن كثير:" ورد البريد بطلبه في شعبان سنة ٧٦٣هـ فأرسل إليه حاجب الحجاب أن يسافر من يومه، فاستنظرهم إلى الغد، فأمهل، وقد ورد الخبر بولاية أخيه الشيخ بهاء الدين السبكي قضاء الشام، عوضا عنه، وجاء الناس ليودعوه، ويستوحشون له، فتوجه على البريد إلى الديار المصرية، وبين يديه جمع غفير من قضاة الشام، والأعيان يمشون في ركابه، حتى ردهم بعد أن جاوزوا البنيان"(١) وقد نظم سبب هذا العزل زمرة كبيرة من أعدائه الألداء (٢).

واستمع إليه يتحدث عنهم بعد أن انتصر عليهم بأسلوب قوى لاذع مكافيء لما كانوا عليه من الحدة واللدادة، فيقول في رسالة بعث بها إلى صديقه الصلاح الصفدي :" أما زمر الأعداء فكل منهم عبس وتولى، وتبين لولي الأمر أن لمثله يقال نوله ماتولى، فهؤلاء قوم أشربوا في قلوبهم المنصب، فقطع أمعاءهم، وأعجبوا بالسنة حداد فضلعت أعضاءهم، لم يرجعوا حتى وقف الهوى، وقوبل كل آفاك

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/٢٥٣، الطبقات ١٠/١٦ ومابعدها.

(٢) من هؤلاء الأعداء كما يقول ابن حجر قريبه أبوالبقاء السبكي المولود سنة ٧٠٧هـ والمتوفي (٧٧٧هـ) ومنهم أيضا عمر بن سعد الكناني المتوفى ٧٩٢هـ قال ابن حجر: إن التاج السبكي هو الذي أدخله بين الفقهاء فلما امتحن التاج كان هو أشد من قام عليه، ومنهم كذلك القاضي محمد بن عبد الرحيم المالكي المتوفى (٧٧١هـ) قال ابن حجر: تولى قضاء دمشق لاكثر من عشرين سنه وكان قد صاهر تقي الدين السبكي ثم كان أحد من قام على ولده التاج عبد الوهاب فبالغ وأفرط. انظر الدرر ٣/٤٢، ٣/٤٩٠، ٤/١١ وذكر ابن حجر أيضا في تاريخه ١/١٦٢ في ترجمة الشيخ أحمد بن محمد الرهاوي الدمشقي أنه لما ولي البلقيني سنة ٧٦٩هـ وآزره وتصدى لمخاصمة تاج الدين السبكي أدى ذلك إلى انحراف كثير من الناس عنه وتحاملوا عليه وكسوا بيته، واخرجوا منه خمراً قيل إنه كان لبعض غلمانه فآل أمره إلى الخمول حتى مات سنة ٧٧٧هـ.

منهم بما نوى ، لقد لعب بهم شيطان الحسد ، وشد وثاقهم بحبل من مسد ، ثم أنشد يقول :

ولقد عذلت حليمهم ونهيته . . . فأبى وقال هواك أمر محكم
فأردت أطنب قال لي متبرما . . أطنب أو اوجز حبل كيدي مبرم
أجد الملامة في هواك لذيذة . . حسداً وبغيا فليلمني اللوم

قال : فلما سمعت قوله " أجد الملامة في هواك لذيذة " عرفت أن العذل لا يرجعه (١) ، وأنه يحاول سقوط من كان فوق محل الشمس موضعه ، فعدلت عن عذله ، واكتفيت بالحكم العدل وعدله ، وجئت فشاهدت من الأمير والسلطان ، ما رغم به أنف الشيطان ، وصرت المسئول فيما حسبوا أني أحاوله استقرارا ، والمتضرع إليه في العود مرارا ، وحفتني من الله ألطافه ونعمه ، وأطلق في الثناء علي من كل مكان ، بفضل من هو كل يوم في شأن :

ولست والله في نفسي قدر واحدة من هذه النعم التي تقلدت عقدها الثمين ، ولا أنا ممن يفتخر بعلم ولا دين ولا نسب ، ولو شئت لأنشدت :

وكان لنا أبو حسن علي . . أبا برا ونحن له بنين

ثم يعقب على كلامه هذا الشيخ الصفدي في رده عليه بقوله :

" لو لم يكن مولانا في هذا الكمال ما حسد على ما حازه من غنائم المعالي ، ولا ودت النفوس الظالمة أن تسلبه ماوهبه الله من فضله ، ولا تمالئوا على اهتضام قدره .

إن العرانين تلقاها محسدة . . ولم تجد لئام الناس حسادا

وعلى كل حال فالحمد لله على النصرة ، وضعف قول أهل الكوفة وترجيح قول أهل البصرة ، فأبو نصر أبو نصر ، وعبد الوهاب عبد الوهاب ".

---

(١) ولا تطمعن من حاسد في مودة . . وإن كنت تبديها له وتنيل

إلى آخر ديباجته (١) .

هذا وقد كان التاج لدى إقامته بالقاهرة فى عز كبير وسعد عظيم عند الناس هناك، كما تحدث بذلك .

مقام التاج فى القاهرة

يذكر التاج السبكي رحمه الله مالاقاه فى مصر من التعظيم وحب الناس له والتفافهم حوله : بعد أن صرف عن قضاء الشام فيقول : إنه منذ سافر من دمشق مستبشرا باع الأسفل بالأعلى وتلا قوله تعالى :" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم " (٢) فحمد المشترى، ووصل مصر، فرحا مسرورا وما شكى إليه جمله طول السرى ، ثم أنشد :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى . . تخب (٣) بي الركاب ولا أمامى

---

(١) ثم أضاف يقول : وأما ماوصفته من حال الحسدة الباغين والمردة الطاغين فقد رد الله كيدهم فى نحرهم وزخر تيار بحر مولانا فأغرق وشل نهرهم :

ولو علموا مايعقب البغى قصروا . . ولكنهم لم يفكروا فى العواقب

انظر هذه المراسلات فى الطبقات ١٠ / ١٦ - ٣٢ .

وتبين مقدار تكالب أعدائه عليه، وتعصبهم ضده والوشاية به إلى ولي الأمر ، واستماتتهم فى إقصائه عن قضاء الشام بأى ثمن، ولكنهم لم يفلحوا فيما قصدوا إليه، فانتصر التاج وتجاوز المحنة بسلام ، قال الشوكانى فى البدر الطالع ١ / ٤١٠" وقد أبان فى أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة حتى أفحم خصومه مع كثرتهم . ." وهكذا . .

يريد الحاسدون ليطفؤوه . . ويأبى الله إلا أن يتمه

(٢) التوبة آية (١١١) .

(٣) الخبب ضرب من السير، والركاب الإبل : يقول إنه أقام بمصر لاتسير به الإبل إلى الخلف ولا إلى قدام يعنى أنه أحب مصر ولزم الإقامة بها ، والبيت للمتنبى فى ديوانه ٤ / ٢٧٦

لكثرة مالقى من التعظيم الذى لو شعر به العدو لما نظم أسبابه ، فقد خيم عليه كرم الله وورد حيث قصد ، فوجد الله عنده فوفاه حسابه ، ولم يخش بحسن ظنه من ذى العرش إقلالا ، ولم يصادف إلا من قال له أهابك إجلالا ، ولم يناده كل محب إلا بهكذا هكذا ، وإلا فلا لا (١) .

ويقول ابن طولون عن هذه الرحلة : " وقد كان أيده الله تعالى فى مدة إقامته بمصر على حال شهيرة من التعظيم والتبجيل يعتقده الخاص والعام ويغتبط بمجالسته ذوو السيوف والأقلام ويزدحم طلبة فنون العلم على أبوابه ويقتدى المتنسكون بما يرونه من آدابه . " (٢)

ونظراً لهذه الحفاوة والتكريم اللذين قوبل بهما التاج فى مصر فقد آنست نفسه حب البقاء فيها ، لولا أن كثيرا من أولى الشأن تضرع إليه مرارا فى أن يعود إلى قضاء الشام ، فرضخ تحت ضغط الشفعاء وعاد أخيرا بعد تمنع وإباء .

---

(١) يعقب صديقه الشيخ الصفدى على وصفه لما لاقاه فى مصر من التكريم والإجلال فيقول : " وأما ماوصفه مولانا من حال مصر المحروسة وإقبالها عليه وإدلالها لديه فما نقول فى ذلك إلا :

تغايرت الأقطار فيك محبة . . عليك فهذا القطر يحسد ذا القطرا

لا بل نقول :

تغايرت الأقطار فيك فواحد . . لفقدك يبكى إذ لقربك يبسم

وكل مكان أنت فيه مبارك . . وفى كل يوم فيه عيد وموسم

ولا شك فى أن الديار كأهلها . . كما قيل تشقى بالزمان وتنعم

انظر الطبقات ١٠ / ٣١ .

(٢) راجع الثغر البسام ص ١٠٣ ومابعدها .

عودة التاج إلى قضاء الشام

كان التاج رحمه الله قد وطن نفسه على الإقامة فى القاهرة بصفة دائمة، ورغب عن قضاء الشام ومشاكل الناس هناك وعافت نفسه مما حكّ[1] الخصوم، قال ابن كثير: " وكان قد لبس حلة القضاء بالديار المصرية، عند توجه أخيه البهاء إلى الشام . قال: وذكر لى أخوه البهاء " أنه كاره للشام ولا يريد العود إليها " [2] ، وكان قد تولى وظائف أخيه فى القاهرة، وهى تدريس الشيخونة، وإفتاء دار العدل، وتدريس الشافعي، والخطابة بالجامع الطولونى، وغيرها مضافا إلى مابيده بدمشق من التداريس التى لا تعلق لها بالقضاء ، وهى تدريس الشامية البرانية، والعذرية ، والأمينية، ومشيخة دار الحديث الأشرفية. فأقام بمصر على هذا الحكم واستناب بمدارسه التى فى دمشق بإذن السلطان له فى ذلك كما ذكره ابن طولون . ثم قال: " وفى سنة ٧٦٤هـ سئل رضى الله عنه فى العود إلى قضاء الشام على عادته فلم يجب، حتى روجع فى ذلك مرارا، وتضرع إليه تكرارا فعاد بحمد الله إلى دمشق قاضيا على قاعدته ودخلها فى أول ربيع الآخر فقرت بروءية وجهه العيون، وسر بقدومه الناس أجمعون " [3]

قال ابن كثير: " وجاءه الناس من الخاص والعام يسلمون عليه ويهنئونه بالعود ، وكان يوم دخوله إلى دمشق كالعيد لأهلها . . " [4]

---

(١) المماحكة المنازعة فى الكلام والتمادى فى اللجاجة ورجل مماحك إذا كان لجوجا عسر الخلق ، انظر اللسان " محك ١٠/٤٨٦ " .

(٢) البداية والنهاية ١٤/٢٥٣ .

(٣) انظر الثغر البسام ص ١٠٣ .

(٤) البداية والنهاية ١٤/٢٥٦

المبحث الثاني

المحنة الثانية

بعد عودة تاج الدين على رأس قضاء الشام مرة أخرى لم يمض غير وقت قصير حتى بدت مراجل الحقد تشتعل لدى أعدائه من جديد ، وكانت في هذه المرة أقوى وأشد من سابقتها ، فلفقوا له التهم وكتبوا فيه المحاضر ورموه بما ينبو عنه السمع ، ولنصغ إلى معاصره الإمام ابن كثير يحكي لنا واقع الصورة مشاهدة . .

قال ابن كثير :" في سنة ٧٦٧هـ عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب ما رمى به قاضي القضاة تاج الدين السبكي .

قال : وكنت ممن طلب إليه فحضرته فيمن حضر ، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة ، وخلق من المذاهب الأربعة ، ومن غيرهم ، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي [1] وكان قد سافر التاج إلى الديار المصرية واستنجز كتابا إلى نائب السلطنة لجمع هذا المجلس ليسأل عنه الناس [2] .

قال ابن كثير :" وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان أحدهما له والآخر عليه وفي الذي عليه خط القاضيين المالكي والحنبلي وآخرين ، وفيه عظائم وأشياء منكرة جدا ينبو السمع عن استماعه [3] وفي الآخر خطوط جماعة

---

(١) تولى نيابة دمشق من سنة ٧٦٤ إلى سنة ٧٦٨هـ ، انظر ترجمته في الدرر ٤ / ٣٦٧ .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦٨ ومابعدها .

(٣) أمور تضحك السفهاء منها . . ويبكي من عواقبها اللبيب

هكذا تهم على هذا المستوى من الكيد ، فيها عظائم وأشياء منكرة جدا ياسبحان الله مانوع هذه التهم ؟ لم نقف على نصها ، ولا شك أنها كبائر لذلك لم يستسغ ابن كثير البوح بها لفرط عظمها لكننا نستشف من قرائن الحال أن في الأمر أغراضا نفسية دفينة ، وهل يكب الناس

من المذاهب بالثناء عليه و فيه خطى بأنى مارأيت فيه إلا خيرا . . . ثم أخذ فى سرد الواقعة وذكر ماقام به نائب الشام من الحث على الصلح بينهم ، وتأنيب من شنع على القاضي الشافعي بما كتب فى تلك الأوراق . . فهدأت الأمور ، ولانت القلوب ، وتم الصلح بين الفريقين ، و انقضى الأمر على مايرام ، ثم عاد تاج الدين من القاهرة إلى دمشق فى آخر جمادى الأولى سنة ٧٦٧هـ ، وتلقاه جماعة من الأعيان والرؤساء وخلائق لا يحصون كثرة ولا تسعهم الطرقات والناس يكبرون و هم فى سرور عظيم يدعون له ويفرحون بقدومه .

= فى النار إلا حصائد ألسنتهم ؟ ، وبالجملة فللتاج السبكى رحمه الله أسوة حسنة بمن تقدمه من أفاضل العلماء الذين جرت عليهم مثل هذه المحن الشداد ، وحيك حولهم من التهم الباطلة والدسائس المغرضة مايُصدَّع الجبال ، وقد حكى كوكبة منهم فى الطبقات. كابن الصائغ والترمذى والرازى و ابن بنت الأعز وغيرهم .

وكمثال لهذا انظر ماذكره فى ترجمة قاضى القضاة ابن بنت الأعز (ت ٦٩٥هـ) وكلامه على محنته العظيمة فى الطبقات ٨/١٧٢ والتى حاصلها أن وزير السلطان الملك الأشرف كان يكرهه فعمل عليه وجهز من شهد عليه بالزور بأمور عظام : قال التاج وكان القاضى بريئا من ذلك بعيدا عنه من كل وجه ، رجلا صالحا لا يشك فيه .

وكان آخر الأمر أنه نزل من القلعة إلى الحبس وعزل ، وخيف عليه أن يجهز الوزير من يقتله ، فنام عنده تلك الليلة شيخنا أبو حيان ، ثم أخرج من الحبس ، فهذا يدل على سير المتآمرين بالفضلاء على خطة متقاربة ونسبة متشابهة .

" أتواصوا به بل هم قوم طاغوت " (٥٣ الذاريات) .

المبحث الثالث

محنته الأخيرة

توالت المحن على التاج السبكي رحمه الله فما يخرج من شدة إلا ويدخل فى أخرى، أكبر منها وأقسى، ففى المحنة الأولى خرج رافع الرأس متوجا بالعزة والنصر، وفى الثانية كانت الهزة أعنف، والرجفة أشد، ولكنه خرج منها خائفا يترقب، أما الثالثة هذه فقد أطاحت به إلى السجن وكانت المحنة الكبرى فى حياته .

وقد عرفت كيف تكالبت عليه الأعداء فى المرتين الأوليين فأجلبوا وألبوا واتهموه بعظائم الأمور ولكنه رحمه الله ثبت وصمد ولم تلن له قناة فتبين لمناوئيه أنهم ينطحون فى صخر وأنه يصدق فيهم قول القائل :

ياناطح الجبل العالي ليكلمه . . اشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

أما هذه المرة فقد أعملوا الرأى كثيرا، وتدبروا الأمر بحرقة وروية، وتأكدوا أن ليس أمامهم إلا أن يستعينوا عليه بالسلطة، ليثبتوه أو يخرجوه، فتوجهوا نحو نائب السلطنة الأمير على المارديني، فقلبوا نظره عليه بوسائلهم الخاصة التى يحسنون استعمالها ، فانحرف عنه هذا النائب(١) رغم ما كان له من ديانة وتصون وحب للعلماء (٢) ، ورغم أنه كان من أصدقاء التاج لمدة

---

(١) قال ابن حجر فى ترجمة هذا الأمير فى الدرر ٣ / ٧٧ : " وكان منحرفا عن تاج الدين السبكي، وهو من أعظم أسباب المحنة الكبرى التى جرت له فى سنة ٧٦٩ هـ ، قال : وكان هذا الأمير أول ماولى نيابة الشام سنة ٧٥٣ هـ فباشرها نحو ست سنين، ثم عزل ثم أعيد سنة ٧٦٢ هـ دون السنة ثم عزل وأقام بطالا ، ثم ولى النيابة فى مصر والشام سنة ٧٦٩ هـ إلى أن مات فى محرم سنة ٧٧٢ هـ " وانظر النجوم الزاهرة ١١ / ١٠٨ .

(٢) وقد ذكره التاج فى معيد النعم وأثنى عليه ووصفه بالديانة =

طويلة فقد عمل معه موقعا للدست، ونائبا للحكم، وقاضيا للقضاة، ومع ذلك فقد انطلت عليه وشاية الخصوم وانحاز إلى جانبهم ضد التاج السبكي، ولكنه على كل حال حاكم يسوءه أن يخالف فى بعض أمره .

ولعل التاج كان قد خالفه فى بعض هواه، ونقم عليه بعض مالا يرضاه . لاسيما وأن التاج قد كان فى قضائه صارما لا يلين فى الحق ولا يرهبه سلطان وهذا الأمير كان قد ولي فى سنة ٧٦٩هـ نيابة مصر بعد نيابة الشام فاتسع سلطانه، وقويت كلمته، فكان أول شيء تكلم فيه واهتم له عزل تاج الدين من قضاء الشام .

قال ابن حجر: " وكان من أقوى الأسباب فى عزله فى المرة الأخيرة أن السلطان لما رسم بأخذ زكوات التجار فى جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ وجد عند الأوصياء جملة مستكثرة من الأموال لكنها صرفت بوصولات ليس فيها تعيين اسم القابض فأريد من ناظر الأيتام أن يعترف أنها وصلت للقاضى فامتنع فآل الأمر إلى عزل القاضى . . " (١).

فانظر كيف اتخذت هذه الحكاية ذريعة إلى العزل : هكذا وجدوا أوراقا فيها أخذ أموال من ا لتجار برسم الزكاة ولم يتبين مصارفها فاتهم بها القاضى ، ولم يكن هناك حجة على وصول الأموال إلى القاضى فتحيلوا بذلك على عزله .

فهل مثل هذه الحكاية الواهية يصح أن تكون سببا فى صدور مثل هذا القرار المجحف فى حق تاج الدين ؟ الحقيقة أن الأمر فيه غموض

= و الصلاح ، انظر مغيد النعم ص . ٥ وراجع الطبقات . ١٠ / ١٩٣، الدرر الكامنة) ٢ / ٤٢٦ ، السلوك للمقريزى ٣ / ٢٠ .

(١) انظر الدرر الكامنة ٢ / ٤٢٦ .

شديد كما ترى (١) ، خاصة وأن الرجل قد أعيد إلى منصبه آخر الأمر فليس بمعقول أن يكون للتهمة المالية أى أساس وإنما تلتمس الأسباب الصحيحة لما حل به من محنة فى طبيعة المنصب إذا وليه رجل من طراز تاج الدين ، لا يلين للمؤثرات التى تأتى من ناحية ذوى النفوذ فى الحكومة ، ثم فى الدسائس التى يحركها الحسد فى نفوس من لا يحتملون مايرون فى غيرهم من فضل ، كما أن أراء التاج الصريحة والجريئة فى كتابه معيد النعم قد كانت بلا شك من أقوى الأسباب فى عزله واختلاق هذه الأحداث حوله ، فقد استطاع الرجل أن يعالج مشكلات الأمة الإسلامية فى هذا الكتاب ، وينقد طوائف الناس فى عصره مبتدئا بالسلطان والمناصب السلطانية والعسكرية متدرجا إلى كل الوظائف العامة ، حتى وصل إلى الفلاح فى أرضه وقرر أنه حر لا يد لأحد عليه ، فمثل هذه الأمور هى التى رسمت جوانب المأساة فى نظرى وأدت إلى إعمال الحيلة فى عزله عن القضاء ، وبأوهى الأسباب وأسخفها ، ولم يكتفوا بذلك بل وجهت إليه الخصومة وعقدوا له مجلس حكم وكشفوا عليه فلم يجدوا عليه أدنى شائنة وأخيرا أرسلوه إلى السجن علهم أن يشفوا منه الغليل .

قال الشوكاني :" وقد اجتهدوا فى طلب عثرة واحدة من عثراته فلم يجدوا " (٢) .

---

(١) التاج السبكى صاحب التراجم الممتعة فى الطبقات لم يكتب ترجمة لنفسه ولو فعل ذلك لكشف الغطاء عن هذا الغموض وأبان كثيرا من مجهولات حياته ، لكنه رحمه الله لم يعش إلى السن التى يصح فيها أن يفكر فى مثل هذه الترجمة ، ولم يوجد من معاصريه من ترجم له ترجمة مفصلة ، ولعل ذلك لم يكن فى الإمكان ، إذ ربما كان هناك من ذوى النفوذ من يحرص على طمس هذه الشخصية وإخفاء معالمها ، وإلا لما عدم من يقوم بذلك .

(٢) رحم الله شيخنا التاج ماكان أمثله بقول أبى الطيب فى ديوانه ٤/ ٨٧
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم . . ويكره الله ما تأتون والكرم
وانظر البدر الطالع ١ / ٤١٠ .

ومع ذلك فقد حكم عليه ابن قاضى (١) الجبل فى هذا المجلس بأن يحبس سنة فتوجهوا به إلى قلعة دمشق وحبس هناك ثمانين يوما ثم أفرج عنه وأعيد إلى القضاء كما كان مرموقا شامخا فوق هامات الجميع .

قال ابن حجر :" وقد أبان فى أيام محنته رحمه الله عن شجاعة وقوة على المناظرة حتى أفحم خصومه مع كثرتهم وتواطئهم عليه، وكان كريما مهيبا تخضع له أرباب المناصب من القضاة وغيرهم ، ثم لما عاد عفا وصفح عن كل من أساء إليه . . " (٢)

تزايد الحلم من زاكي سجيته . . فلم يكن من عداه قط ينتقم
موفق الحكم والفتوى على رشد . . . ماند منه على ماقد مضى ندم (٣)

---

(١) ابن قاضى الجبل هو القاضى أحمد بن الحسن بن عبد الله المقدسى المتوفى (٧٧١هـ) ،قال ابن حجر:" ولى القضاء سنة ٧٦٧هـ فلم يحمد فى ولايته وكان عنده مداراة وحب للمنصب.
وقال ابن كثير:" لم تحمد مباشرته للقضاء ولا فرح به صديقه بل شمت به عدوه وباشر القضاء دون أربع سنين وكان فيه مزح وإنكات فى البحث ومن شعره رحمه الله قوله :
نبى أحمد وكذا إمامى . . وشيخى أحمد كالبحر طامى
واسمى أحمد وبذاك أرجو . . شفاعة أحمد الرسل الكرام
انظر الدرر الكامنة ١ / ١٢٠ ، الدارس فى تاريخ المدارس ٢ / ٤٥ ، شذرات الذهب ٦ / ٢١٩ .

(٢) انظر الدرر ٢ / ٤٢٨ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٢١ .

(٣) البيتان للصلاح الصفدى أنظر الطبقات ١٠ / ٣٢٦ .

الفصل السابع :

في ذكر مؤلفاته ووفاته

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : في ذكر مؤلفاته وآثاره العلمية

المبحث الثاني : في وفاته

الخاتمة

المبحث الأول

مؤلفاته وآثاره العلمية

ترك التاج السبكي رحمه الله للمكتبة الاسلامية آثارا بديعة نافعة وتآليف قيمة تشهد له بالعلم الغزير والفضل المبين .

ورغم قصر عمره فقد تعددت مؤلفاته، وشملت أنواعا شتى من العلوم ، لذلك كان يقول رحمه الله :" لا يخلو لنا وقت يمر بنا خاليا عن التصنيف ولا يخلو لنا زمن إلا وقد تقلد عقده جواهر التأليف، ولا يخلو علينا الدهر ساعة إلا ويعمل فيها القلم بالترتيب والترصيف . . " +

وقد رزق السعد فى تآليفه فطارت وانتشرت بين الناس فى حياته ، وكانت بعد موته أوسع انتشارا وأكثر نفعا، مما يدل بوضوح على إخلاصه وحسن سريرته وإرادته وجه الله تعالى بها : فمن هذه الآثار :

أولا : فى أصول الفقه :

١) الابهاج شرح منهاج البيضاوى - مطبوع .

٢) رفع الحاجب شرح مختصر ابن الحاجب" حقق فى الأزهر ولم يطبع بعد"

٣) جمع الجوامع - مطبوع .

٤) منع الموانع - وهو كتابنا موضع التحقيق .

٥) التعليقة فى أصول الفقه - مخطوط : وقد ذكره فى باب الاجماع من رفع الحاجب وأشاد به .

ثانيا : فى الفقه :

١) التوشيح " على التنبيه والمنهاج والتصحيح " مخطوط .

٢) ترشيح التوشيح فى اختيارات والده الشيخ الامام - مخطوط

ذكرهما المؤلف فى الطبقات ٨/١١٦، ١٠/٢٥٨ وذكرهما فى كشف الظنون ١/٣٩٩، ١/٥٠٧، وابن حجر فى الدرر ٢/٤٣٥، والـ ، والسيوطى فى الأشباه والنظائر ص ٤٧، ٥٦، ١٢٢

٣) ارجوزة فى الفقه مخطوطة - أورد منها السيوطى فى كتابه الرد على من أخلد إلى الأرض ص ٢٢ بعض الأبيات ومنها قوله :

ولا تجوز جمعتان فى بلد .. وإن تناهى الخلق فى العسر الأشد
وضاق بالجم الغفير المسجد .. نص عليه الشافعي الأوحد
واختاره الشيخ الامام وقضى .. بأنه الدين القويم المرتضى

٤) أوضح المسالك فى المناسك : ذكره بروكلمان .

٥) تبيين الأحكام فى تحليل الحائض .. ذكره بروكلمان .

٦) رفع الحوبة فى وضع التوبة .. ذكره المصنف فى الطبقات ٢/٣٢٧ .

٧) جزء فى الطاعون .. ذكره حاجي خليفة .

٨) فتاوى .. ذكره بروكلمان .

٩) أرجوزة فى خصائص النبى صلى الله عليه وسلم و معجزاته ذكرها فى الطبقات ٩/٢٠٥ ومنها قوله :

وهو إذا احتاج إلى مال البشر .. أحق من مالكه بلا نظر
لأنه أولى بذى الإيمان .. من نفسه بالنص فى القرآن

ثالثا : فى الحديث :

١) أحاديث رفع اليدين - ذكره روكلمان .

٢) جزء على حديث المتبايعين بالخيار - ذكره فى الطبقات ١٠/١٩١

٣) كتاب الأربعين - ذكره فى الطبقات أيضا ٩/١٧١ .

٤) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للغزالى وأظنه قد طبع، وانظر الطبقات ٦/٢٨٧ .

رابعـا : التاريـخ والتراجـم :

١) الطبقات الكبرى ، وهي مطبوعة محققة في عشرة أجزاء .

٢) الطبقات الوسطى ، والصغرى وهما مخطوطان .

خامسا : فـي العقـائـد :

١) السيف المشهور في شرح عقيدة أبي منصور الماتريدي ذكره المصنف في كتابنا هذا في مسئلة الإسم هل هو المسمى أوغيره ؟

٢) قصيدة نونية في العقائد أوردها في الطبقات ٣ / ٣٧٩ وذكر فيها مسائل الخلاف في أصول الدين بين الحنفية والأشعرية .

سادسا : في القواعد الفقهية :

١) له الأشباه والنظائر ، وقد حقق في جامعة الازهر ولم يطبع .

ولـه كتـب أخـرى منهـا . .

١) الدلالة عن عموم الرسالة جوابا عن أسئلة أهل طرابلس ذكره بروكلمان .

٢) مناقب الشيخ أبي بكر بن قوام ، ذكره بروكلمان ايضا .

٣) مصنف في الأحاجي والألغاز ذكرمنه في الطبقات ٢٤ بيتا ـ انظره ٩ / ١٣٥ ، وذكره أيضا في معيد النعم ص ١٠٠ .

٤) كتاب معيد النعم ومبيد النقم ـ مطبوع .

وهو كتاب قيم تكلم فيه المصنف على مختلف طبقات الناس في عهده فهو مع صغر حجمه كتاب جامع فيه سياسة وأدب وتاريخ واجتماع وغير ذلك .

هذه بعض مؤلفاته التي استطعنا العثور على أسمائها وتسجيلها

هنـا، ولعـل له مؤلفات أخرى يكشف عنهـا الزمان .

ولو لم تكن إلا هذه فإنهـا أصدق شاهد على سعة علمه وعمـــــق درايته وتخليد أثره .

تلك آثارنا تدل علينـــا . . فانظر وابعدنا إلى الآثـــــار

هذا وقد كان من عادة المصنف رحمه الله الإشادة بكتبه وتأليفه وإظهار محاسنهـا للخلق ، فنراه كثيرا مايحيل القارىء على كتاب صنفـه ثم يشوقه إلى ذلك أيما تشويق .. كقوله مثلا فى هذا الكتاب عند كلامه علـــى "أن اللفظ محمول على عرف المخاطب أبدا " . . قال :" وتقريره مستوفى فى شرح المختصر ، ثم قال : وقد أطلنا القول فى تحقيق هذا الموضع فى كتابنا الأشباه والنظائر وهو الكتاب الذى لا يليق بالمجد فى طلب العلم أهماله ولا يسع طالب التحقيق إغفاله " (١) .

وقوله فى مبحث (لو) وأنت إذا نظرت مـاحررناه فى منـــــع التعليل بعلتين فى شرح المختصر ، والتعليقـة وغيرهما من كتبنا ظهر لـك هذا ظهورا قويا . . (٢)

وقوله عن جمع الجوامع فى آخره :"قد رتبك مختصرا بأنواع المحامـــد حقيقا وأصناف المحاسن خليقا " (٣) .

ولم يكن التاج السبكي يفعل ذلك تبجحا وافتخارا ، ولا يقصد بذلـك إظهار مصنفاته والاستكثار بها معاذ الله ، وإنما يريد الإرشاد إلى الخـير والإشارة إليـه وبيان مظانه والدلالة عليه .

---

(١) انظر ذلك ص ٤١١ تحقيق

(٢) انظر ص ٩٤ ، تحقيق

(٣) انظره فى مجموع المتون ص ١٨٥ .

المبحث الثاني

وفاته رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه

عزل تاج الدين في المرة الأخيرة في جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ ثم حوكم وسجن في قلعة دمشق، حوالى ثمانين يوما وكان نائب الشام قد قرر في القضاء عوضا عنه الشيخ سراج الدين البلقيني، فولي القضاء والخطابة .

قال ابن حجر :" ولم يزل من يطالب بعودة السبكي يلح على أمير علي، حتى أذن في الافراج عنه واحضاره، فلما بلغ ذلك البلقيني توجه إلى مصر، فأقام قليلا، ثم رجع إلى دمشق فتسلط عليه أهل الشام، وكتبوا فيه محضرا، وأسمعوه مايكره، وكان بهاء الدين السبكي في القاهرة فسعى لأخيه بالخطابة، فخطب أول يوم من شوال، فشق ذلك على البلقيني وخرج بأهله وعياله الى القاهرة فأعيد تاج الدين إلى القضاء وهي الولاية التي مات فيها" (١) .

وصنف في أثنائها كتابه الترشيح في اختيارات والده في الفقه فانتهى منه في آخر شعبان سنة سبعين وسبعمائه ٧٧٠هـ كما حكاه عنه العطار(٢) ثم استأثر الله بروحه ومات رحمه الله في سابع ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وسبعمائه شهيدا بالطاعون (٣) عن قرابة أربع وأربعين سنة (٤) قضاها في مرضاة الله طاعة وفقها في الدين وجهادا في العلم

---

(١) انظر الدرر الكامنة ٢ / ٤٢٧ .

(٢) راجع حاشية العطار ٢ / ٣٣٠ .

(٣) ورد في الحديث:" الطاعون شهادة لكل مسلم" رواه البخاري ٤/ ١٥

(٤) حيث اختلف في سنة ولادته فذكر ابن حجر في الدرر ٢ / ٤٢٥ أنه ولد سنة ٧٢٧هـ وقال شيخه الذهبي في المعجم المختص ص ١٥٢ أنه ولد سنة ٧٢٨هـ وذكر الزبيدي في تاج العروس ٧/ ١٤٠ أن ولادته كانت سنة ٧٢٩هـ.

والعمل ،قال ابن حجر :" خطب يوم الجمعة فطعن ليلة السبت ومات رابعه ليلة الثلاثاء (١)" رحمه الله رحمة واسعة، وأنزل على جدثه شآبيب الرحمة والرضوان .

فطويت بموته صفحة مشرقة حافلة بالعطاء والجد والانتاج العلمي المبارك . . . وهكذا . .

حكم المنية فى البرية جار . . ماهذه الدنيا بدار قرار
بينا ترى الإنسان فيها مخبرا . . ألفيته خبرا من الأخبار
فالعيش نوم والمنية يقظة . . والمرء بينهما خيال سار

وقد خلف رحمه الله ذرية صالحة وأبناء بررة علماء منهم ولده تقي الدين ابن عبد الوهاب السبكي .

قال ابن العماد " درّس فى حياة والده تاج الدين بالمدرسة الأمينية ، وعمره سبع سنين ، قال : وهذا من العجائب، وولى خطابة الجامع الأموى بعد أبيه ، وعمره عشر سنين ، وتوفى رحمه الله بالطاعون سنة ست وسبعين وسبعمائه ٧٧٦هـ" (٢) .

---

(١) وهو بمنزله بالدهشة بظاهر دمشق ودفن فى مقبرة السبكية بسفح الجبل المشرف على مدينة دمشق .

(٢) انظر شذرات الذهب ٦ / ٢٢٣ ، وترجم السخاوى لإحدى بناته العالمات فقال :" هى صالحة ابنة التاج عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى، أجاز لها العز بن جماعة وغيره ولقيها الزين رضوان فاستجازها قال السخاوى وأظن أننى قرأت عليها شيئا " . انظر الضوء اللامع ١٢ / ٧٠ .

الخـــاتمـــــة

بعد هذه الأحاديث الشيقة عن التاج السبكى رحمه الله وبعـــد هذه الدراسة المتواضعة التى حاولت فيها إبراز بعض معالمه وخصائصـــه ، نقف هنا لنسجل خاطرة فقهية أوردها فى كتابه القيم" ترشيح التوشيـح" فى الفقه(١) رأيت من اللائق أن لا نغفل هذه الدراسة من الإشارة إليها خاصة وأنها تتعلق برسول الله صلى اللهعليه وسلم . .

وهذا الكتاب المذكور أخرجه المصنف فى أواخر أيامه . .قال العطار وهو من أجل كتبه ، ثم قال : وقد وقعت إلي نسخة من هذا الكتاب وأنـــا بمدينة دمشق بالشام . .

ومقدمة ذلك الكتاب بخطه فاشتريتها وجاء فى آخرها قوله :" فرغت

---

(١) هذا الكتاب هو عبارة عن شرح لكتاب آخر فى الفقه اسمه" توشيـــح التصحيح" وضعه المصنف على التنبيه ، والمنهاج ، والتصحيح وذكر أنه التزم فيه ترجيحات والده الشيخ الامام ، قال :"ولما انتهيت فيـه إلى كتاب الطلاق عسر علي بعده معرفة اختياراته إلا فى النـادر ، مما وضعت من تصانيفه اللطاف" .
وذكر أنه أكمل هذا الكتاب سنة ٧٦١هـ ثم عمل عليه ترشيح التوشيح فيما بعد .
وذكر محققا الطبقات أن كتاب" ترشيح التوشيح " فى أصول الفقـــه وليس كذلك بل هو فى الفقه كما ترى ، وقال الزركلي فى الاعلام ١٨٤/٤ إن " توشيح التصحيح" فى أصول الفقه .
وهو خطأ أيضا : والصواب أنهمافى الفقه قال ابن حجر فى الـدرر ٤٢٥/٢ وقدعمل فى الفقه التوشيح والترشيح وذكرهماكذلك السيوطى فى الأشباه والنظائرص٤٧ ، ٥٦ ، ١٢٢ وصاحب كشف الظنون ٣٩٩/١ ٥٠٧/١ ، وانظركلام المؤلف عنهما فى الطبقات ١١٦/٨ ، ٢٥٨/١٠.

من تصنيف هذا الكتاب فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان المكرم سنة سبعين وسبعمائة بمنزلى بالدهشة ظاهر دمشق المحروسةوأُرسلت فى صفر سنة إحدى وسبعين وسبعمائة منه نسخة إلى أخى الأُستاذ العلامة المحقق بهاء الدين أبى حامد أحمد . . إلى آخر ماقاله وجاء فى الكتاب عن واقعة زيد بن ثابت رضى الله عنه قول المصنف رحمه الله فى هذه القصة حكى الإمام الغزالى عند ذكر خصائص النبى صلى الله عليه وسلم مانصه ". وقالوا إذا وقع بصره على امرأة فوقعت منه موقعا وجب على الزوج تطليقها لقصة زيد ، قالوا : ولعل السر فيه من جانب الزوج امتحان إيمانه بتكليفه النزول عن أهله ، ومن جانبه صلى الله عليه وسلم ابتلاؤه ببلية البشرية ومنعه من خائنة الأعين ومن إضمار مايخالف الإظهار ، ولذلك قال تعالى :" وتخفى فى نفسك ما الله مبديه " الآية(١)

ونقله الرافعى عن الوسيط ساكتا عليه(٢) . . ثم قال :

قال لنا الشيخ الامام مرات هذا منكر من القول ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعجبه أمرأة أحد من الناس وقصة زيد إنما جعلها الله تعالى قطعا لقول الناس إن زيدا ولدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإبطالا للتبنى فى الاسلام كما صرحت به سورة الأحزاب من أولها إلى آخر القصة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :" ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه"(٣) أى من أبوين فى الإسلام ، إلى قوله تعالى :" وماوجعل أدعياءكم أبناءكم

---

(١) سورة الاحزاب آية (٣٧) .

(٢) ونقله أيضا النووى فى الروضة ٧ / ٩ ، والرملى فى نهاية المحتاج ٦ / ١٧٨ قال الرملى :" وتجب إجابته صلى الله عليه وسلم على امرأة رغب فيها وعلى زوجها طلاقها" .

(٣) سورة الأحزاب آية (٤) .

ذلكم قولكم بأفواهكم" إلى أن قال :" أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله"[١] ثم ساق الله تعالى السورة إلى أن قال :" وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم"[٢] تحريض على امتثال أمره تعالى في طلاق امرأة زيد ، ثم قال تعالى" وتخفي في نفسك ما الله مبديه " أي من أمر زيد بطلاق امرأته وتزوجك أنت إياها ، لا أمر محبتها معاذ الله ثم معاذ الله ، ثم بين الله تعالى بالقول الصريح بعد التعريض الطويل أن السر في ذلك إبطال التبني ونسخه ورفعه بالقول والفعل ليعلم الناس أنه لو كان ولداً له لما تزوج امرأته ، فقال تعالى :" لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم"[٣] ثم قال بعده" ماكان محمد أبا أحد من رجالكم"[٤] فمن تأمل السورة وعرف شيئا من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقن بالعلم القاطع أن تزوج امرأة زيد إنما كان لذلك لا لغيره ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان أكره الناس بالطباع البشرية لزواجها عكس ماتوهمه الغزالي ، وكان يشق عليه ذلك مشقة شديدة ولكنه ماكان ليمكنه أن يخفي شيئا مما أنزله الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى " وتخفي في نفسك ما الله مبديه" ، فنزلت الآية آمرة له صلى الله عليه وسلم بإظهار ما أمر الله من زواجها لإبطال التبني وإن كان زواجها أشق شيء عليه صلى الله عليه وسلم "[٥] .

قلت وينبغي لكل مسلم أن يعرف هذا وإنما لزمنا ذكره هنا لنفاسته

---

(١) الاحزاب آية (٥) .

(٢) الاحزاب اية (٣٦) .

(٣) الاحزاب آية (٣٧) .

(٤) الاحزاب آية (٤٠) .

(٥) انظر النص كما نقله العطار في حاشيته ٢ / ٣٣٠ .

إذ ربما وقع السؤال عنه فيعسر الوقوف عليه لعزة وجود ذلك الكتاب.

ولنرى أن بعض الفقهاء رحمهم الله يعطون مادة ومجالا لأعداء الاسلام، من المستشرقين وغيرهم، للطعن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنقيص من جنابه، بما يروجونه وينقلونه فى كتبهم من هذه الإشاعات المنكرة والأقوال الساقطة، فينبغى حذف مثل هذه الأقوال من كتب الفقه والتنبيه عليها بما يكشف عورها، ويبين زيفها لئلا يتخذها الكفرة ذريعة للنيل من الإسلام، ونبيه صلى الله عليه وسلم، والله المستعان.

وإلى هنا ينتهى بنا المطاف فى هذه الدراسة العاجلة، عن حياة التاج السبكى رحمه الله، فنسأل الله السداد فى القول والعمل، والتوفيق فى الحال والمآل، وهو حسبنا ونعم الوكيل!

الباحث

فهـــرس الآيـــات القرآنيـــــة

الآيـــــة	رقمهـا	صفحة
(سـورة البقــرة)		
يؤتى الحكمة من يشاء	٢٦٩	١١٩
(سورة آل عمران)		
ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا	٨	أ
ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون	١٣٩	١٩
(سورة النســاء)		
أم يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله	٥٤	١١٩
فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم	٦٥	١٤٥
(سورة الانعــام)		
فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين	٤٥	١٨
(سورة الاعــراف)		
أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون	٩٧	١٦
(سـورة الانفــال)		
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم	٤٦	٦
(سـورة التوبــة)		
إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم	١١١	١٦٣
(سورة الرعــد)		
إنما يتذكر أولو الالبــاب	١٩	٦
(سـورة الكهف)		
الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب	١	أ

الآيـــــــة	رقمها	رقم الصفحة
(سورة الاحـــزاب)		
ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه	٤	١٨٠
أدعوهم لأبائهم	٥	١٨١
وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا	٣٦	١٨١
أن يكون لهم الخيرة من أمرهم	،،	،،
وتخفى فى نفسك ما الله مبديه	٣٧	١٨٠
ماكان محمد أبا أحد من رجالكم	٤٠	١٨١
(سورة الشـــورى)		
ليس كمثله شيء وهو السميع البصير	١١	٦٧
(سورة الذاريات)		
أتواصوا به بل هم قوم طاغون	٥٣	١٦٧
(سورة الطـــلاق)		
ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه	١	١٤٩

فهـــــــرس الأحاديث

	رقم الصفحة
صلوا كما رأيتمونى أصلى	١٢٢
الطاعون شهادة لكل مسلم	١٧٧
اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت	أ
من قتل قتيلا فلـــه سلبه	٣٥
من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين	أ
لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر	٧٧
لا يشكر الله من لا يشكر الناس	أ

فهـــرس مصـادر الدراســة

١) الآيات البينات لأحمد بن قاسم العبادى على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع - طبع دار الطباعة العامرة بـ مصر سنـــة ١٢٨٩هـ

٢) الابهاج فى شرح المنهاج للامام تقى الدين السبكى وولده تـــاج الدين السبكى - طبع دار الكتب العلمية بيروت - الطبعـــة الاولى عام ١٤٠٤هـ.

٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) تحقيق محمد محى الديـــن عبد الحميد طبع مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثانية عـــــام ١٣٧٧هـ

٤) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكى مخطوط بمركز البحث العلمى بجامعة ام القرى تحت رقم ١٠٩١.

٥) انباء الغمر بأبناء العمر فى التاريخ لابن حجر العسقلانـــــى (ت٨٥٢هـ) طبع دار الكتب العلمية - بيروت

٦) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لمحمد بن أحمد الحنفى طبعـــة عيسى الحلبى بالقاهرة الطبعة الاولى - تحقيق محمد مصطفى

٧) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى طبـــــع دار المعرفة - بيروت .

٨) البداية والنهاية لابن كثير(ت٧٧٤هـ) طبع المتوسط - بيروت

٩) البيت السبكى لمحمد الصادق حسين طبع دار الكاتب المصـــرى بالقاهرة عام ١٣٧٠هـ

١٠) القاضى البيضاوى وأثره فى أصول الفقه لجلال الدين عبد الرحمـــن طبع مطبعة السعادة بمصر الطبعة الاولى عام ١٤٠١هـ

١١) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدى ـ طبعة الاولى بالمطبعة الاخيرية بمصر عام ١٣٠٦هـ

١٢) تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى (ت٩١١) هـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ طبع دار السعادة بمصر الطبعة الثانية عام ١٣٧٨هـ

١٣) تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم لابن جماعة طبع دار الكتاب العربى بيروت .

١٤) تقرير الاستناد فى تيسير الاجتهاد للسيوطى طبع بيروت ١٤٠٥هـ

١٥) الثغر البسام فيمن ولى قضاء الشام لشمس الدين ابن طولون (ت٩٥٣هـ) ـ تحقيق صلاح الدين المنجد طبع المجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٣٧٥هـ.

١٦) جمع الجوامع لتاج الدين السبكى مطبوع مع شرح الجلال المحلى وحاشية العطار بمطبعة المكتبة االتجاريةالكبرى بمصر عام ١٣٥٨هـ

١٧) حاشية العطار على شرح الجلال المحلى لجمع الجوامع طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر عام١٣٥٨

١٨) حسن المحاضرة للسيوطى تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم طبع مطبعة عيسى الحلبى بمصر الطبعة الاولى١٣٨٧هـ

١٩) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى طبع بولاق بمصر سنة ١٢٧٠هـ

٢٠) الدارس فى تاريخ المدارس لمحمد النعيمى (ت ٩٢٧هـ) تحقيق جعفر الحسنى طبع مكتبة الثقافة بالقاهرة عام١٤٠٨هـ

٢١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى طبع دار الجيل ـ بيروت .

(٢٢) ديوان أبى تمام شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية طبع دار صعب - بيروت .

(٢٣) الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض - للجلال السيوطى - تحقيق الشيخ خليل الميس طبع دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ

(٢٤) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب لتاج الدين السبكى مخطوط بمكتبة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة تحت رقم ٢١٩ أصول فقه .

(٢٥) روضة الطالبين للامام النووى (ت ٦٧٦هـ) اشراف زهير الشاويش طبع المكتب الاسلامى بيروت البطبعة الاولى عام ١٤٠٥هـ

(٢٦) السلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين احمد بن على المقريزى تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٧٠م

(٢٧) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد عبد الحى الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) نشر المكتب التجارى بيروت .

(٢٨) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى نشر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

(٢٩) طبقات الحفاظ للسيوطى تحقيق على محمد عمر الطبعة الاولى سنة ١٣٩٣هـ مطبعة الاستقلال الكبرى

(٣٠) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى تحقيق محمود الطناحى وعبد الفتاح حلو - الطبعة الاولى سنة ١٣٨٣هـ طبع مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .

(٣١) فتاوى السبكى لتقى الدين على بن عبد الكافى السبكى - طبع دار المعرفة - بيروت .

٣٢) فهرس الفهارس والاثبات لعبد الحى الكنانى ـ طبع بيروت .

٣٣) قواعد الاحكام فى مصالح الانام لعز الدين ابن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) طبع دار الكتب العلمية بيروت

٣٤) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون تأليف مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة ـ طبعة استانبول سنة ١٩٤١م

٣٥) لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ) طبعة دار صادر ـ بيروت

٣٦) المتنبىء لمحمود شاكر طبع مطبعة المدنى بالقاهرة عام١٤٠٧هـ

٣٧) مدارج السالكين لابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق محمد حامد الفقى طبع دار الكتاب العربى ـ بيروت عام ١٣٩٢هـ

٣٨) المعجم المختص بالمحدثين لشمس الدين الذهبى تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة ـ الطبعة الاولى عام١٤٠٨هـ مكتبة الصديق بالطائف .

٣٩) معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى تحقيق محمد على النجار طبع دار الكتاب العربى بمصر ـ الطبعة الاولى عام١٣٦٧

٤٠) الموافقات فى أصول الشريعة للامام الشاطبى (ت. ٧٩٠هـ) تعليق عبد الله دارز طبع دار المعرفه ـ بيروت

٤١) النجوم الزاهرة فى أعيان مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن تغر بردى الاتابكى (ت٨٧٤هـ) طبع المؤسسة المصرية العامه سنة ١٣٨٣هـ

٤٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لشمس الدين الرملي طبع المكتبة الاسلامية

٤٣) الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى (ت٧٦٤هـ) تحقيق محمد ابن ابراهيم ومحمد بن الحسين الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤ بمطبعة دار صادر بيروت .

٤٤) الوفيات لتقى الدين السلامى (ت٧٧٤هـ) تحقيق صلاح مهدى عباس الطبعة الاولى بيروت عام ١٤٠٢هـ.

فهـــرس الموضوعـــات

الموضـــوع	رقم الصفحة
المقدمـــــــة	أ
سبب اختيار الموضوع	و
خطة الدراســـة	ح
(الحالة السياسيـــة)	
تمهيد فى أثر البيئه	١
بداية تكوين دولة المماليك	٢
قضاء التتار على الخلافة العباسية ببغداد	٤
وقعة عين جالوت	٧
إعادة الخلافة العباسية إلى القاهرة	١٠
التصارع على السلطة عند حكام المماليك	١٤
صور من ذلك التصارع	١٦
تشوف الناس إلى المناصب والسعى فى طلابها	٢٠
موقف التاج السبكي من الأحداث السياسية فى عصره	٢٢
(الحالة الاجتماعية والاقتصادية)	
طبقات المجتمع فى عصر التاج السبكى	٢٦
الطبقة الحاكمة	٢٦
طبقة العلماء والفقهاء	٢٧
طبقة العامـــة	٢٩
طبقة أهل الذمة	٣١
البدع والخرافات السائدة فى ذلك العصر	٣٢
الناحية الاقتصادية	٣٥

الموضـــــوع	رقم الصفحة
(الحالة العلميـــة)	
النشاط العلمى فى عصر التاج السبكى	٣٩
التدرج فى التعليم	٤٢
أسباب ازدهار الحياة العلمية فى ذلك العصر	٤٤
اهتمام الامراء بالعلم والعلماء	٤٦
ظهور شخصية العلماء	٥٢
التقليد والتعصب المذهبى	٥٤
(حياة التاج السبكـى)	
مولـــده	٥٩
اسمه ونسبه	٦٠
نشأته وطلبه للعلم	٦٣
عقيدته	٦٧
(شيوخـــــــه)	
أبو الحجاج المـــزى	٦٩
أبو عبد الله الذهبى	٧١
أبو حيان النحوى	٧٤
والده تقى الدين السبكى	٧٦
الشيخ صلاح الدين الصفدى	٨٠
(تلاميـــــــذه)	
الامام ابن الجزرى	٨٣
الشـــيرازى	٨٤
الحمـــــودى	٨٤
اللخمـــــى	٨٥

الموضـــــوع	رقم الصفحة
السلمـــى	٨٥
ثناء العلماء عليه	٨٧
(دراسة الكتـــاب)	
مصطلحات المصنف فى الكتاب	٩٠
مصادر الكتاب	٩١
أهمية الكتاب	٩٢
ملاحظات على الكتاب	٩٥
أسلوبـــه	٩٧
منهجـــه	٩٩
(التعريف بكتبه الأُصولية)	
الابهاج	١٠٦
شرح المختصر	١٠٦
جمع الجوامع	١٠٧
منع الموانـــع	١٠٩
اعتداده بآرائه فيها	١١٠
انصافه لخصومـــه	١١١
رجوعه إلى الحق	١١١
(مكانتـــة العلميـــــة)	
تمهيـــــد	١١٤
ابن السبكى الأُصولى	١١٦
، ، الفقيـــه	١١٨
، ، المجتهـــد	١٢٠
بعض اختياراته التى خالف فيها مذهب الشافعى	١٢٢

الموضـــــوع	رقم الصفحه
ابن السبكى المحدث	١٢٤
، ، المؤرخ	١٢٧
، ، النحـوى	١٣١
، ، الأديب	١٣٢
، ، الشاعـر	١٣٥
، ، المصلح الاجتماعى	١٣٩
موقفه مع السلطات	١٤١
إقامة فرض الجهاد	١٤١
العدل بين الناس	١٤١
حماية بيت المال	١٤٢
إلقاء مقاليد الأحكام إلى الشرع	١٤٤
قمع أهل البدع والأهواء	١٤٥
شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم مرتد كافر لا تقبل توبته	١٤٥
موقفه مع نظراء الجيش	١٤٧
الفلاح حر لا يد لآدمي عليه	،،
الديوان لا شرع له	،،
موقفه مع من يتولون أمراً هل الجرائم	١٤٩
التجسس على الناس	،،
من زنا بامرأة زوجوه إياها	،،
موقفه مع القضاة	١٥٠
موقفه من طوائف العلماء	١٥١
تردد بعض العلماء إلى أبواب السلاطين	١٥١
تعصب العلماء فى الفروع	١٥٢
التلفيق بين المذاهب	١٥٢

الموضـــــوع	رقم الصفحة
(أعماله العلمية ومناصبـــه)	
الافتاء والتدريس	١٥٥
القضاء والخطابة	١٥٧
(موقفه من خصومـــــه)	
تمهيـــد	١٥٩
محنته الأُولى	١٦١
مقامه فى القاهرة	١٦٣
عودته إلى قضاء الشام	١٦٥
المحنة الثانية	١٦٦
المحنة الأُخيرة	١٦٨
مؤلفاته وآثاره العلمية	١٧٣
وفاته رحمه الله	١٧٧
الخاتمـــة	١٧٩
الفـــهـــاس	١٨٣